إصدارات مركز الأسـرة السعيدة

سلسلة سعادة الأسرة المسلمة في جنتين (١)

سعادة الأسرة المسلمة في جنّة الدنيا بالحياة المطمئنة الكريمة

أ. د. عابد توفيق الهاشمي

عميد كلية الدراسات الإسلامية في بغداد - سابقاً

دار ابن حزم

٢١٠،٤
هـ ع س

سعادة الأسرة المسلمة
في جنة الدنيا
بالحياة المطمئنة الكريمة

مركز المرأة للدراسات والاستشارات
ت : ٢٤٤٦٠٢٢
ت.ف: ٢٤٤٦٠٢٣
ترخيص رقم (٧١)

أ. د. عابد توفيق الهاشمي
عميد كلية الدراسات الإسلامية في بغداد - سابقا

دار ابن حزم

بسم الله الرحمن الرحيم

حُقُوقُ الطَّبعِ مَحفُوظَةٌ

الطَّبعَةُ الأولى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

ISBN 9953-81-366-3

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان - ص.ب: 14/6366
هاتف وفاكس: 701974 - 300227 (009611)
بريد إلكتروني: ibnhazim@cyberia.net.lb

الإهداء

إلى:

زوجتي الصابرة المحتسبة، هدية كتابي (السبعين)، وهو من أنفس كتبي، هدية شكر موصول بالدعاء على صبرك النادر وإرادتك الصلبة في رفقتي نصف قرن، وفي صبرك معي في محن الدعوة، وفي إنجاز كتبي وموسوعاتي، وما زال الإنتاج موصولاً بالصبر لكلينا.

ولك من السعادة الدنيوية في هذه الرفقة بالإنجاب الكريم، الذي أفخر به، كما أدعو لك بالسعادة الأخروية، وعداً من الله ﷻ أن ينجزه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1]. وأملنا في الحياة الحقيقية اجتماعنا مع الأسرة والأقارب والأحبة في ظلال رحمته: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾[2]. اللّهم آمين.

المؤلف

٢٨ ذو القعدة ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦/١/١م

---

(١) الزمر: ١٠.

(٢) القمر: ٥٥.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا
لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾

[الروم: ٢١]

أهمية الزواج

شعار الزوجين في الزواج

﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[1].

الزواج نصف الإيمان

«من تزوج فقد أحرز نصف الإيمان، فليتق الله في النصف الباقي»[2].

(١) التوبة: ٧٢.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان.

مقام الأزواج

مقام الزوج في قلب زوجته

«لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد، لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها»[١].

مقام الزوجة في قلب زوجها

«خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»[٢].

(١) أخرجه ابن ماجه وأبو داود والترمذي.

(٢) أخرجه الترمذي وابن ماجه والدارمي وابن حبان والبيهقي في السنن الكبرى والطبراني في الأوسط، والبزار في مسنده.

المرأة الصالحة

قيمة المرأة

«إنما النساء عندكم عوان، لا يملكن لأنفسهنّ شيئاً، أخذتموهنّ بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء، واستوصوا بهن خيراً، اللّهم هل بلغتُ، اللّهم اشهد»[١].

المرأة الصالحة كنز

«الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة»[٢].

(١) في حجة الوداع ـ أخرجه أحمد.

(٢) أخرجه مسلم.

المقدمة

❁ أهداف الكتب وأهميتها:

تتمثل فيما يأتي:

١ ـ العبادة هدف الحياة في الإسلام، لتحقيق سعادة الإنسان:

من بركات الزواج أن حقق للأسرة هدف الحياة التي وضعه الخالق الهادي لنا، ليكون نبض القلب، فلا نغفل عنه لحظة من ليل أو نهار، وهذا الهدف هو (العبادة). قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾[1]، تحقيقاً للسعادة التي يرتضيها لنا في الدارين، قال ﷻ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٧﴾[2]. وجزاء الله بأحسن أعمالنا هو سعادة دائمة لا تنقطع.

وعبادتنا المقبولة عند الله والمثمرة لنا هي الاستجابة

---

(١) الذاريات: ٥٦.

(٢) النحل: ٩٧.

لهدي الله ورسوله في تنظيم حياتنا، قال رب العالمين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[(1)]، والاستجابة من خلال السمع والطاعة، أي: الفهم والتطبيق كما يقول جلَّ جلاله: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾[(2)]، وهذه هي الاستجابة التعبدية الضامنة للحياة الكريمة التي يريدها الله لنا والتي تتحقق بها السعادة في الدارين.

٢ ـ سعادة الأسرة من خلال التزامها بأحكام الإسلام:

هذه العبادة في أوسع آفاقها التي فتحها الزواج الإسلامي، لها من الله الخالق الهادي أجران عظيمان:

أولهما: جنة الدنيا: يقول الله ﷻ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾[(3)]، لا يضل العقل بالانحراف عن جادّة الحق ما دام ملتزماً بهدي ربه، ولا تشقى النفس باضطراب وقلق، وجنة الدنيا هي صحة العقل المستنير، وصحة النفس المطمئنة.

ثانيهما: جنة الآخرة: يقول الحق سبحانه: ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[(4)]، الحياة الطيبة في الدنيا، والجزاء الأحسن في الآخرة، وهو الجنة، دار الخلد،

(١) الأنفال: ٢٤.
(٢) النور: ٥١.
(٣) طه: ١٢٣.
(٤) الأعراف: ٤٢.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾[1].

ومن الثواب الأخروي كذلك جمْع الله تعالى الآباء والأبناء والأحفاد والأجداد ـ هكذا بلمّ الشمل في حياة دائمة مع بعضهم، لا تنقطع بفراق: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾[2].

٣ ـ الزواج مفتاح السعادة حين يتعبد الزوجان به وبأحكامه:

إن الزواج هو العبادة التي أماط اللثام عنها المصطفى ﷺ حين قال: **«من رزقه امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه، فليتق الله في الشطر الثاني»**[3].

وإنه السعادة كما يصورها رسولنا الحكيم ﷺ: **«من سعادة ابن آدم ثلاثة: المرأة الصالحة والمسكن الصالح والمركب الصالح»**[4]. وهو العبادة منذ انعقاد النية في الزواج على أنه عصمة الدين، وهو العبادة كذلك في ممارسة الحياة الزوجية، في المباشرة والإنسال، وهو العبادة في الحياة السعيدة التي يحرص كل من الزوجين على إسعاد الآخر، وتجنب الطلاق والخلع، والحذر من مسبباتهما عبادة وسعادة، وإيقاعه بشروطه والانفصال

---

(١) الزمر: ٧٣.

(٢) الطور: ٢١.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط والحاكم في المستدرك.

(٤) أخرجه الإمام أحمد وقال عن إسناده الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد: ورجاله رجال الصحيح، كما أخرجه ابن حبان في صحيحه، والحاكم في المستدرك، وضعفه الطحاوي والطيالسي في مسنده.

ـ بعد التماس جميع الأسباب لمنعه ـ عبادة وراحة من المتاعب، والعدّة والرجعة والنفقة بأحكامها الشرعية عبادة، والإمساك بمعروف أو التسريح بإحسان عبادة، والافتداء والتعويض عبادة، والرضاع والفصال والحضانة عبادة، بل إن عبادته ﷺ في كل حركة وخاطرة بين الزوجين، للانسجام وإشاعة جوّ السعادة بينهما، وبين الأولاد.

ثم إن تربية الأطفال والحياة معهم وتعليمهم وتأديبهم وتنشئتهم عبادة، وكذلك فإن السعي خارج البيت لإعالتهم هو شعبة من شعب الجهاد، وهو أسمى درجات العبادة التي تحقق السعادة للأسرة ـ الوالدين والأولاد، يقول المصطفى ﷺ: **«من كدّ على عياله كان كالمجاهد في سبيل الله»**[(1)].

فالزواج ـ من خلال ما تقدم ـ هو مفتاح العبادة في الدنيا لأوسع أبوابها، لضمان سعادة الدارين، ورضوانه ﷺ.

٤ ـ الزوجة الصالحة مصدر سعادة الرجل، وهما سعادة لبعضهما:

إذ هي طيّعة له منقادة فطرياً وشرعاً، ورقيقة شفافة، ضعيفة، لذا أوصى المصطفى ﷺ بالتعامل معها برقّة، حذراً من أن تنكسر بين يديه كالقارورة: **«رفقاً بالقوارير»**[(2)]، ثم هي

---

(١) ذكره القزويني وشارح سنن ابن ماجه بلفظ: **«الكاد على عياله كالمجاهد في سبيل الله»**، وذكره الحاكم في المستدرك، وغيرهم.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد، وابن حبان والدارمي والنسائي في الكبرى وغيرهم بلفظ: **«رويداً سوقك بالقوارير»**، و**«رويدك سوقك بالقوارير»**.

بوجودها أنس للزوج، وفي السرّاء فرحة مضاعفة، وزوال همّ في الضرّاء، وعون لزوجها على نوائب الدهر.

في هذه الزوجة الصالحة أنشد الشاعر:

هنّ الصواحب في السرور وفي الأسى ... ولكم وفَيْنَ، فكنّ خير مضحيات
طوبى لهنّ مربّيات مؤنسات ... آياتٍ وعيٍ للفضيلة واعيات
طوبى لهن - مصليات خاشعاتٍ ... متبتلاتٍ عابدات قانتات
ينشئن أجيالاً على نهج الهدى ... يغرسن في الأبناء محمود الصفات
يحفظن أنساباً، يصُنّ بعولةً ... آياتٍ في الطّهر، بالعفاف محصنات

هذه الزوجة المسلمة، بما فطرت عليه من الخِلقة المحببة إلى الرجل هي أحب الخلق إلى سيد الثقلين محمد ﷺ، تكريماً وإعزازاً ووفاءً لها، سئل ﷺ عن أحب الناس إليه، فأجاب الرسول ﷺ: **«عائشة»**، فقيل له: ما قصدنا النساء، فقال ﷺ: **«أبوها»** - وهو الصدّيق إذ لم يسمه باسمه، بل نسبه إليها، مع علوّ مقامه عنده! بل هو أعلى مقام للرجال عنده، فهي بحقٍ شريكة حياته، وأدب التعامل معها - هو ميزان للإيمان، حيث قال ﷺ: **«خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»**[1]، هكذا يباهي ﷺ بأنه خير الناس معاملة لزوجه، وهو القدوة المثلى.

هذا مقام الزوجين في الإسلام، تحيله العبادة إلى سموّ في المشاعر لكليهما، وواقع سعيد في حياة الأسرة وتربية الأجيال.

ولو لم يكن الزواج في الإسلام عبادة وسعادة لما نعمت

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه وابن حبان في صحيحه، والترمذي والدارمي والبيهقي في السنن الكبرى، والطبراني في الأوسط، والبزار في مسنده.

الأسرة ببركة الحياة السعيدة التي ضمنها الإسلام بمنهاجه الرباني المقدس، ولما حصل لها الثواب في الدارين.

❁ محتوى الكتب الأربعة ومحاورها:

لقد أشبعتها جميعاً بالنصوص الإسلامية الغزيرة من كتاب الله ﷻ، وسنة رسوله ﷺ الصحيحة الموثقة وآراء المفسرين الثقات، والمصادر والمراجع الموثوقة، كما جملتها بنصوص شعرية مختارة، وقصص أدبية مشوقة.

❁ الكتاب الأول: (سعادة الأسرة المسلمة في جنة الدنيا، بالحياة المطمئنة الكريمة):

يتضمن أربعة فصول:

أما الفصل الأول: (الإسلام يلبي نداء الفطرة في بناء الأسرة)، فقد أوضحت فيه الصلة الوطيدة بين الفطرة والزواج في الإسلام.

وأما الفصل الثاني: (مقام الأنثى ـ طفلة وامرأة ـ في الإسلام)، فبيّنت فيه عناية الإسلام المتميزة لها طفلة وامرأة، ومسؤولياتها في الحياة، وآدابها في السلوك، واستثناءها من بعض مسؤوليات الرجال.

وأما الفصل الثالث: (أهداف الزواج، والتهيؤ له عبادة وسعادة)، فتناولت فيه أهداف الزواج الشرعي بتفصيل، يتحقق من خلاله صدق عبادة الأسرة وسعادتها.

وأما الفصل الرابع: (الحياة الزوجية ـ عبادة وسعادة)، فقد

شرحت فيه أحكام الإسلام لكلٍ من الزوجين، بما يحقق للحياة الزوجية اطمئنان العبادة وتذوق طعمها الروحي، ويثمر الانسجام والوفاء لكلّ من الزوجين، ويجنبهما المشكلات التي قد تقع بينهما، والحلول الإسلامية الحكيمة لها.

❁ الكتاب الثاني: (سعادة الأسرة المسلمة في جنة الدنيا، بالجنس العف، وتربية الجيل، وحلول مشكلاتها):

يتضمن خمسة فصول:

أما الفصل الأول: (نظرة الإسلام التعبدية إلى الغريزة الجنسية)، فقد أوضحت فيه إغلاق الإسلام جميع الأبواب أمام الغريزة الجنسية، إلا باب الزواج، لعصمة الأفراد والمجتمع من الإسفاف، وشرحت فيه صلة الجنس الحلال بالعبادة، بما يحقق العفة والسعادة النفسية لهما، كما ذكرت المحرمات في الجنس تفصيلاً.

أما الفصل الثاني: (ثمرة الزواج ـ الأسرة ـ تعبد وسعادة)، فقد ضمّ نعمة الأولاد، ومقام الوالدين في الأسرة المسلمة، وتربية الأولاد ـ رجال المستقبل ـ بما يعدل الجهاد.

أما الفصل الثالث: (التعدد)، وهو فطرة، ولكنها مقيدة بشروط شرعية، فقد فصلت مبرراته وفوائده، ثم أضراره، بأدلة موثقة، كما ذكرت أمهات المؤمنين والحكمة في تعددهن.

أما الفصل الرابع: (التفرّق)، بأنواعه الأربعة ـ الطلاق والخلع والإيلاء والظهار، فقد عالجته بإسهاب، حماية للأسرة من

التشتت، وذكرت وقايات الطلاق ـ الوقاية من نشوز كل من الزوجين، وأوضحت أحكام الطلاق الشرعي، وما بعد الطلاق، بما فيه من الإحسان إلى المرأة وعدم الإضرار بها.

وأما الفصل الخامس: (المتعة)، فألحقته بهذا الباب تجوّزاً، وتحذيراً منه، إذ ليس هو من الإسلام، ولكنه قائم في أحد المذاهب الإسلامية (الشيعة الأثني عشرية)، وهي عقيدة لهم بأدلتهم من مصادرهم المعتمدة، كما أوضحت براءة الإسلام منه بالنصوص الصريحة من الكتاب والسنة، وأضراره الخطيرة على البنات والنساء والشباب والأزواج والنسل منها.

❁ الكتاب الثالث: (سعادة الأسرة المسلمة في جنة الدنيا، بمن فيها من المغتربين عنها والعاملين معها)، (وسعادتها في جنة الخلد):

ويشمل ستة فصول:

أما الفصل الأول: (إشاعة الأسرة المسلمة للسعادة بينها وبين المغتربين عنها، من الأيتام والخدم ـ عبادة وسعادة)، فيشمل عناية الإسلام باليتامى، تفصيلاً، ثم عنايته بالخدم تفصيلاً، لئلا يشعر الإثنان بغربة في حياتهم مع الأسرة المسلمة، بل تتحقق لهم السعادة معها.

أما الفصل الثاني: (إشاعة الأسر المتكافلة للسعادة بينها وبين الأقارب والجيران والضيوف)، فيُعنَى بالأقارب وثمرة صلتها، وأداء حقوقها الشرعية ـ عبادة وسعادة في الدارين. كما يُعنى بالجيران والضيوف، الذين أوصى بهم الإسلام، ليكونوا

جميعاً وحدة متماسكة مع الأسرة، ويجو من الحب والسعادة.

أما الفصل الثالث: (إشاعة السعادة في من لهم صلة مباشرة بالأسرة المسلمة ـ الأصدقاء والأعداء)، فقد تناولت فيه نوعي الأصدقاء ـ أصدقاء المصالح، وأصدقاء الوفاء، كما حذّرت من العدو تفصيلاً، بنصوص كثيرة منتقاة من الشعر البليغ، وفصّلت السلوك مع كلٍّ منهما.

أما الفصل الرابع: (إشاعة السعادة بين الأسر المسلمة والمجتمع الإسلامي)، فقد أوضحت فيه آداب التعامل بين المسلمين، فيما يشيع الحب والإخاء والتماسك بين أمة الإسلام ـ أسراً، وجماعات، وشعوباً وقوميات، في بناء الحق وهدم الباطل.

أما الفصل الخامس: (إشاعة السعادة بين البشر، من خلال سلوك أُسَر المجتمع المسلم معه)، فقد فصلت فيه القول، من خلال تكريم الإسلام للجنس الإنساني، إحساناً إليه، وحماية له، وعدلاً معه ورحمة به. كما بيّنت سلوك المسلم مع أهل الكتاب، بنفس الإحسان، إلا الظالمين منهم.

❁ الكتاب الرابع: (سعادة الأسر المسلمة في جنة الخلد):

تناولت فيه فطرة الأسرة في رغبتها بجمع شملها في الدنيا والأخرى، وشرحت صفة أهل الجنة ونعيمهم الخالد، وأهل النار وشقاءهم المقيم.

ثم انتهيت إلى خاتمة الكتب.

أما مصادر الكتب، فقد اعتمدت على أئمة الحديث النبوي الذين عنوا بتخريج الحديث وروايته من مصادرها الموثوقة مع الدقة في انتقاء الأحاديث الصحيحة. . كما اعتمدت على أمهات المصادر والمراجع الإسلامية، من مفسرين وفقهاء، وكتب أدبية، علماً بأن أكثر النصوص الشعرية مصدرها موسوعتنا رياض الشعر الإسلامي القيمي والحكمي، وموسوعة الأدب الإسلامي وتاريخه في عصوره ـ للمؤلف، وكتب أدبية أخرى.

ومع حرصي على نسبة الأبيات الشعرية إلى قائليها، غير أن بعضها خلت من أسماء قائليها، ولكنني استشهدت بها عملاً بحكمة المصطفى ﷺ: **«الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها»**[1]، والحكمة المأثورة: «خذ الحكمة ولا تهمك من أي وعاء خرجت».

شكر وتقدير للأخ الكريم الأستاذ معتز محمد عثمان في طباعته الأنيقة للكتب، والأستاذين عمر السالك وعائش الهادي، اللذين أعاناني في تخريج أحاديث الكتب مع دعائي لهم برضوان الله ﷻ.

---

(١) أخرجه الترمذي.

سعادة الأسرة المسلمة في جنة الدنيا بالحياة المطمئنة الكريمة

الفصل الأول: (الإسلام يلبي نداء الفطرة في بناء الأسرة).

الفصل الثاني: (مقام الأنثى ـ طفلة وامرأة ـ في الإسلام).

الفصل الثالث: (أهداف الزواج، والتهيؤ له عبادة وسعادة).

الفصل الرابع: (الحياة الزوجية ـ عبادة وسعادة).

تمهيد

يحدّث الكتاب الأول بفصوله الأربعة عن بناء صرح الأسرة المسلمة في رحاب هدي الله ﷻ، من غير استضافة أحد غريب إليها.

يتناول هذا **الكتاب الأول** الدافع الفطري الذي أودعه الله تعالى في الجاذبية بين الزوجين، ليتم الزواج، تمهيداً لبناء الأسرة وولادة النسل، بحضن الأم أولاً، ثم يتعاون الوالدين على تربيته، وتستمر الحياة حسب النظام الذي انتهجه الإسلام، يقول ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[1]، بتكريم الإسلام للأنثى - صغيرة وامرأة وزوجة وأماً، إذ هي مصنع الأجيال، فتستحق هذا التكريم. وفيه استثناؤها من مسؤوليات الرجال الصعبة، ورعايتها والرفق بها، والحفاظ على عفتها أن تمتهن، كما عُني بالذكر طفلاً وشاباً وزوجاً وقوّاماً على الأسرة، وفصّلت فيه آداب المرأة المسلمة في سلوكها، بما يزيدها وقاراً وعفة واحتراماً، وذكرت خطر الاختلاط بالأجنبية وحرمة التبرج السافر، ووضحت آداب

---

(١) الأنفال: ٢٤.

النظر والكلام والمشي، زيادة في الحفاظ عليها.

كما عرضت فيه أهداف الزواج الدنيوية والأخروية، ورغّبت في تحقيقها، إضافة إلى أنها مغروسة في الفطرة، لتدوم الحياة من خلال الزواج الذي هو نصف الدين. وفي تحقيق الأهداف يتم استقرار الزوجين عاطفياً، وينظف المجتمع من الفساد.

وعرضت في هذا الفصل مجال العبادة من خلال التهيؤ للزواج ـ منذ انعقاد النية فيه، والبحث عن الزوجة الصالحة، ورؤيتها، ثم خطبتها، وبيان أثر البيئة والوراثة في هذا الانتقاء، وعرّجت على الحب الذي يسبق الزواج ومشروعيته، ثم عقد النكاح، ووليمة العرس وآدابها، والمهر، وتيسيره إذ: «**خير الصداق أيسره**»[1] كما في حديث النبي الزوج ﷺ.

وتناولت في هذا الكتاب الحياة الزوجية التي يخطط لها الإسلام بأسعد حياة وأبركها منذ ليلة العرس حتى توديع الحياة.

تناولت فيه آداب العرس المقترنة بالعبادة منذ لقاء العروسين، كما شرحت (قوّامة الرجل على المرأة)، بما يسعدهما، من معان حكيمة مستقاة من مصادر ثقات، ووضحت آداب تعامل الزوج مع زوجته بما يديم فرحتها ويوفر كرامتها، ويعينها في شؤون بيتها، ووصفت حبّ الزوجين لبعضهما وطاعتها له لوناً من ألوان العبادة، معززاً بالنصوص الإسلامية، وأكدت كذلك على الوفاء بينهما، وتناولت الكره بينهما، إن وقع، والوقاية منه وأسبابه وعلاجه تفصيلاً.

---

(١) أخرجه الحاكم، سبل السلام ١٥٢/٣.

الفصل الأول

الإسلام يلبي نداء الفطرة في بناء الأسرة

الفصل الأول

الإسلام يلبي نداء الفطرة في بناء الأسرة

❁ الإسلام والفطرة:

بما أن الإسلام: (رباني التوجيه، إنساني الاتجاه)، لذا فهو في تجاوب دائم مع الفطرة الإنسانية التي فطرنا الله تعالى عليها، بجميع خصائصها وحاجاتها ومقوماتها، يقول الله ﷻ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾[1].

فما هو الدين القيم عند الله ﷻ بهذه الآية الكريمة؟

إنه (الإسلام ـ الدين الحنيف)، الذي يتجاوب مع الفطرة الإنسانية التي فطرَ الله عليها جميع البشر.

وفطرتهم ثابتة، لا تبديل لها حتى قيام الساعة، لذا أمر الله تعالى أتباع محمد ﷺ، من خلال أمره له أن يقيم وجهه لهذا

(١) الروم: ٣٠.

الدين الخالد خلود الفطرة الإنسانية في كيان الإنسان.

وكما أن دين الله ثابت، لا تبديل له: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾[1]، وهو خاتم الأديان، ولا دين ولا منهاج بعده، ولا بديل عنه، كذلك فإن الفطرة الإنسانية ثابتة، لا تبديل لها: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾[2].

من أجل ذلك فإن اجتماعهما في توجيه الإنسان، من غير تناقض ولا تنافر، يقول الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3]، إذ هو الانسجام والتوافق بين الفطرة في الخلق ومنهاجه في الأمر، بما يسهل استجابة الإنسان لمنهاج ربه.

❁ الأزواج في الإسلام أصل الخلقة:

يقول رب العالمين ـ الخلاّق العليم: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾[4]، وهذه الآية الحكيمة حقيقة علمية لم تُعرَف إلا في نهاية القرن المنصرم، حين اتسع علم الأحياء البرية والمائية والبرمائية والجرثومية والفضائية، والهوام،.. بل حتى النبات، بل حتى الذرة التي تخضع لمعنى (شيء) في الآية الكريمة، فسبحان الله الذي خلق الكون من أزواج شتى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾[5].

---

(١) يونس: ٦٤.
(٢) الروم: ٣٠.
(٣) الأعراف: ٥٤.
(٤) الذاريات: ٤٩.
(٥) يس: ٣٦.

ويخبرنا العليم الخبير كذلك أنه خلق البشر من نفس واحدة، وخلق منها زوجها وانحدرت البشرية منهما: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾[1]، ولو لم يجتمع الزوجان لما كان النسل، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾[2].

❁ فطرة الجاذبية بين الزوجين (الجنسين)، لبناء الأسرة السعيدة:

يوضح الإسلام أن هذين الزوجين ـ الذكر والأنثى ـ غرس الله تعالى في فطرة كل منهما (الحبّ والرحمة)، لدوام الصلة بينهما، سَكَناً دائماً، لا مجرد جمع حيواني بهيمي، يقول ﷻ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾[3].

تشير هذه الآية الكريمة إلى أن حوّاء التي هي أمّ لكل حيّ ـ خُلِقت من الرجل (آدم)، ويفصّل ذلك المصطفى ﷺ: **«إن المرأة خُلقت من ضلِعَ، . . . ألا فاستوصوا بالنساء خيراً»**[4] ـ

---

(١) النساء: ١.

(٢) الحجرات: ١٣.

(٣) الروم: ٢١.

(٤) أخرجه البخاري عن أبي هريرة. ونصه كاملاً: **«استوصوا بالنساء، فإن المرأة خلقت من ضِلَع، وأن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء»**. وفي رواية مسلم: **«بالنساء خيراً»**.

أي: من ضلع آدم، فتشعر كل أنثى - فطرياً - بالحنين إلى رجل، إذ هي منه، ويشعر كل رجل - فطرياً بحاجته إلى أنثى - يحميها ويحبها ويأنس بها.

ولئن خُلِق آدم الرجل من تراب، فإن المرأة خلقت منه، فهي خلقة محسّنة، وإن حصيلة هذا الحب المتبادل - الفطري - السكنى معاً، لبناء الأسرة.

وهذه المشاعر الفطرية المتبادلة بينهما، هي مظهر آيات الله وعظمته في الإبداع والخلق، يقول تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾[1]، ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[2].

وحملتنا الآية الكريمة السابقة على (التفكير فيها) ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، لإدراك أسرار الحب المتبادل والرحمة المتبادلة بينهما، وإدامتها وتطويرها إلى الأفضل، ولتطوير السكن بما يحسّنه ويجمّله، والتفكير بآثار الزواج المتوّج بالأولاد والأحفاد، من حيث التنشئة والتربية والتعليم لهم، والحياة الأسرية الكريمة.

ومن التفكير السليم في دقائق الزواج الحرص على السعادة الكامنة للزوجين في (المودة والرحمة) الكامنة في فطرتي الأزواج، والتفكير فيهما ينمّيهما ويقودهما إلى السعادة الوارفة الظلال عليهما.

---

(١) طه: ٥٠.
(٢) النمل: ٨٨.

❁ الأسرة في الإسلام والجنس العفّ:

إن فطرة الجاذبية التي غرسها الله في الزوجين هي لأداء رسالة في بناء عش الزوجية السعيد في بيوت عامرة، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾[(١)]، وكذلك فإن اجتماع الزوجين فيها للمتعة الحلال كما قال ﷻ: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[(٢)]، ولإنجاب الذرية معاً: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾[(٣)].

والحرث مكان الزرع والغرس، فهو ليس لمجرّد الشهوة العارمة فحسب، ولكنه لها ولما هو أسمى منها، لإنجاب الذرية، فتتكون الأسرة التي من أجلها شرّع الإسلام الزواج، وصاغ لها منهاجاً يسعدها. اتّباعُه عبادة وعزّ وأنس، وثمارُه الأجيال المؤمنة الواعية لمنهاجه ﷻ، به تعمر نفوسها وبيوتها ومجتمعاتها، بل الدنيا قاطبة، إذ المسلم مسؤول عن تبليغ الإسلام إلى البشرية جمعاء: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[(٤)].

فلا انحراف في الجنس، كما هو الحال في الحضارة الحديثة، ولا أمراض جنسية تعصف بأرواح الملايين بالإيدز سنوياً، ولا شذوذ جنسي ـ من لواط وسحاق، بما هو مبذول

---

(١) النحل: ٨٠.
(٢) البقرة: ١٨٧.
(٣) البقرة: ٢٢٣.
(٤) البقرة: ١٤٣.

لديها تعف عنه حتى البهائم، وإنما هو الجنس العفّ الذي يصوغه الزواج الإسلامي الملتزم بحدود الله، يقول تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾[1]، ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾[2].

❀ الأسرة والنسل:

النسل هو رصيد المستقبل البشري، وأغلى ذخرٍ على وجه الأرض، لذا فإن نظام الأسرة الفطري الذي يحتضن الطفل وينشئه هو من أسمى درجات العبادة وأسعدها ثماراً، وصدق رسول الله ﷺ حين قال: **«لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من أن يكون لك حمر النعم»**، وفي رواية: **«مما طلعت عليه الشمس وغربت»**[3]، فكيف بصياغته منذ طفولته وتنشئته حتى رجولته، وكيف بإخوانه وأخواته المتتابعين في النسل! إنها جميعها عبادات تحققت من خلال الزواج، وبهم يبنى المجتمع المسلم الذي ينير الدنيا بنور الإسلام.

فالأسرة هي الحضن الطبيعي الذي يحمي الطفولة الغضة وينشّئها تنشئة شاملة، جسماً وعقلاً وروحاً ومشاعر نفسية، وبناءً

---

(١) البقرة: ٢٢٩.

(٢) الطلاق: ١.

(٣) متفق عليه، وأخرجه الحاكم والطبراني بلفظ: **«لأن يهدي الله لك رجلاً خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمس»**، وأخرجه ابن المبارك في الزهد بلفظ: **«لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من الدنيا وما فيها»**.

متكاملاً، يتدرّج بمراحله العمرية منذ طفولته الغضة، ثم الرشد، وحتى الهرم: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾[1]، حتى ينتهي الصغير إلى بلوغه سن التكليف إنساناً قادراً على العمل والإنتاج والإسهام في بناء مجتمعه، ويتعامل مع الحياة بما وجهه البيت المسلم والمدرسة والمجتمع إلى هدي الله ونظامه الرباني وهو كما وصفه الخالق الحكيم: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾[2].

والطفل الإنساني أطول الأحياء طفولة، لأن دوره في الحياة أخطر من أي مخلوق آخر، لذا فهو بحاجة إلى إعداد أطول من غيره، من أجل ذلك كانت حياته الأسرية باحتضان أمه له أولاً، ثم والديه معاً، لبضع سنين، ثم يأتي دور الأقارب والأصدقاء والمدرسة والمجتمع، ووسائل الإعلام.

ولغرض نماء هذا الطفل النماء السليم من العقد والاضطرابات النفسية، هيّأ الإسلام له جوّ الاستقرار في الأسرة، ينعم في ظلالها بظلّ الحب والرحمة التي يعيشها في تعامل والديه فيما بينهما، وتعاملهما معه.

وإذا رحمت فأنتَ أمٌّ أو أبٌ هذان في الدنيا هما الرُّحَماء[3]!

ذلك السلوك الأُسَري نظّمه الإسلام، وتتعبد به الأسرة في كل حركة وكلمة، بل في كل نبضة وابتسامة، ليخيّم الجو

---

(١) نوح: ١٤.
(٢) البقرة: ١٣٨.
(٣) أحمد شوقي في مدح المصطفى ﷺ من قصيدته الهمزية ـ الأدب الإسلامي المعاصر وتاريخه، مصر، ص٢٢، المؤلف.

الإسلامي على الجميع، بركةً ورحمة، وترفل الأسرة بسعادة الانسجام والاحترام والوفاء المتبادل بين الجميع.

❁ لا حضن للطفل إلا في الأسرة:

إن الأم التي عاش طفلها في رحمها، وتغذّى من دمها، ورضع من حليبها، لا تحسن رعايته إلا هي، لا (الحضانة الجماعية)، السائدة اليوم في الحضارة الحديثة.

ولقد أثبتت التجارب أن حضن الأم هو المكان الفطري، وهو النماء السليم والاطمئنان النفسي للطفل، لا يعوّض عنه غيره، كما أثبتت أن الطفل في العامين الأولين بحاجة نفسية فطرية إلى الاستقلال بأمه، لا يشاركه فيها طفل آخر[(١)].

وإن حضانة الطفل يحددها القرآن الكريم: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ﴾[(٢)]، لأهمية هذين العامين من عمر الطفل.

«وقد أظهرت الدراسات المعاصرة أنه لا يمكن فصل الطفل عن الأم في مرحلة الرضاعة، وخير مكان للطفل في السنتين الأولى والثانية من حياته هو أحضان أمه الدافئة، هو بحاجة إلى أن تتلمس يداه صدر أمه، وعيناه شاخصة نحو وجه أمه، ووجهها هدية مهداة إليه من الله يجد متعة نفسية حين يمص حليب أمه من ثديها، وأن هذه الرضاعة الطبيعية لمدة عامين، ضرورة لنمو الطفل نمواً سليماً جسمياً ونفسياً واجتماعياً،..

(١) تفسير الظلال: ٢٣٦.

(٢) البقرة: ٢٣٣.

إضافة إلى احتوائه مناعة خاصة ضد الجراثيم»[1].

أما السنوات الخمس الأولى، فالذي يبني شخصيته فيها والداه وبيته، والوالدة الأهم في هذا العمر، أما بعده فدور الأب أقوى وأجدى، ولكلّ منهما أجر العبادة الشاقة في تربيتهما له، والتي لولا الزواج لما حصلت، لا هي ولا ثوابها، وثوابها سعادة الأسرة بحياتها المنسجمة في الدنيا، وثواب الآخرة، باجتماع الآباء والأبناء والأحفاد في النعيم الخالد.

«لقد أجمعت معظم الدراسات المعاصرة في ميدان الطفولة، على أن السنوات الخمس الأولى من حياة الطفل من أهم وأخصب، بل من أخطر مراحل العمر، ذات التأثير الكبير في بناء الإنسان، باعتبارها مرحلة حاسمة في النمو والتطوير، في مختلف أنماط السلوك والعادات، تتبرعم وتتفتح معظم التكوينات الحياتية، والوراثية، والبيئية في الجوانب الجسمية والحركية والتفاعلات الهرمونية، ونشاطات الخلايا العقلية، ومهارات الأنامل الدقيقة، كما أن معظم قدرات الطفل واستعداداته، واتجاهاته، وميوله، تتجه نحو الظهور والتناسق والتثبيت، ففيها تبدأ معظم حاجات الطفل، وحالاته النفسية ونزعاته الانفعالية، وعلاقاته الاجتماعية بالحيوية والتطبع. ففي هذه المرحلة يتكون نموه اللغوي ومحصوله اللفظي، وتتكون منظومته اللغوية النامية بصورة سليقية وفطرية وبجهد ذاتي داخلي، مع التأثر الشديد بما يحيط به من حديث البالغين ولغتهم.

وتعد مرحلة الطفولة المبكرة من أخصب مراحل العمر للتعلم

(١) الطفولة في الإسلام ـ أ.د.نجم الدين علي مردان، ٧٤ ـ ٧٥.

وبناء المفاهيم واكتساب المهارات.. الطفل في هذه المرحلة يشق طريقه إلى كشف كل شيء جديد ومجهول يحيط به.. كل ذلك يقوده إلى أسئلة: (كيف How، ولماذا Why)...؟

لقد توصل (بلوم Bloom ١٩٦٤) في دراساته المتنوعة في ميدان الطفولة المبكرة إلى أن السنوات الخمس الأولى تكون حاسمة في حياة الطفل، وأقام على هذه الحقيقة مدرسته الواسعة، ويقرر أن ٥٠٪ من نموه العقلي والإدراكي يتم في عمر أربع سنوات، وأن ٨٠٪ من نموه العقلي يتكامل قبل أن يتجاوز الثامنة من عمره»[١].

يقول الإمام بديع الزمان النورسي (سعيد)[٢]، مجدد القرن

---

(١) سيكولوجية اللعب في مرحلة الطفولة المبكرة ـ مرحلة الحضانة ورياض الأطفال ـ أ.د.نجم الدين علي مردان ـ ٢٣ ـ ٢٥، باختصار.

(٢) الإمام بديع الزمان ـ سعيد النورسي، ولد في قرية (نورس) في الأنظول، قرب بحيرة وان، في تركيا، عام ١٢٩٤هـ ـ ١٨٧٦م، وتوفي عام ١٩٦٠م عن عمر ٨٦ سنة، نشأ في بيت ورع، كان والده مضرب الأمثال في التقوى، حفظ القرآن في إحدى الزوايا (التكايا)، ودرس العلوم الشرعية كلها، واللغة العربية بآدابها وحفظ حوالي نصف القاموس المحيط غيباً، وأجيز علمياً وهو ابن ١٤ سنة، وتصدّى للإفتاء، كما درس العلوم الحديثة، حفظ ٨٠ متناً لثمانين كتاباً، ثم انتقل إلى مدينة (وان) بعمر ١٨ سنة، وكان يسمى بـ (سعيد المشهور) لذكائه وعلمه، وفي شبابه تصدى للمستعمرين، كما تقدم إلى السلطان عبدالحميد لإنشاء الجامعة الإسلامية في وان على نهج الجامع الأزهر، وسعى حثيثاً ولم يوفق، وأسماها بالزهراء، ووضع الحجر الأساس فيها، ثم إنه في الحرب العالمية الأولى قاوم الجيوش الروسية وجرح وأسر ونُفِي على حدود سيبيريا. ورحل بعدها إلى الشام وكان خطيباً مصقعاً باللغة العربية والتركية والكردية، وهو كردي، وقاوم الغزاة الإنكليز في إستنبول في الحرب العالمية الأولى.. ذلك سعيد القديم في جهاده. =

الرابع عشر الهجري في تركيا: (لقد قرأت ٨٠,٠٠٠ كتاب، لم تؤثر فيّ كما أثّرت أمي[١] في تربيتي في السنوات الخمس الأولى).

= أما سعيد الجديد ـ كما يسمّي نفسه، والذي سمّي فيه ببديع الزمان، وقد عاشه (٤٥) سنة فقد أنكر طريقه القديم طريق السياسة، وهجرها ولعنها، ثم اتجه إلى ربه في تأملاته وعبادته في خلوته، وفي تربيته لإخوانه، ليكونوا نواة الإسلام في حياته، وبعد مماته، ونذر حياته لله وحده، وعاش زاهداً ليس له من اللباس والرياش أكثر من أن يقدّر بدريهمات، واشترك وصفه مع الإمام الشافعي في شعره:

عليّ ثياب لو يباع جميعها بفلسٍ لكان الفلس منهن أكثرا
وفيهن نفس لو تقاس ببعضها نفوس الورى كانت أجلّ وأكبرا

تفرّغ لكتابه ـ (المكتوبات)، وتولى اتباعه الذين رباهم نشرها، وكانت تنتشر في أقاصي البلاد كالنار في الهشيم، حتى صار له شأن مهيب من قبل أتباعه وأعدائه، حتى اتهم اتهامات كاذبة، وحوكم (٢٥٠٠) محكمة، خرج منها جميعاً منتصراً، وكانت حياته بين سجن وتغريب وإقامات جبرية ومحاكمات، وصار أتباعه بالملايين، وحين وفاته، كانت الأمطار غزيرة، رؤيت طيور بيضاء غريبة كثيفة فوق القبر ليلاً، إنها الملائكة! وبعد الدفن بأشهر، منعت الدولة التجول وحمل جثمانه بمعزل عن الناس، وجسمه لين كأنه حيّ، ووضع في طائرة، وحمل إلى جهة غير معلومة، وأنصاره اليوم في تركيا بالملايين، وفي كثير من أجزاء العالم الإسلامي بالملايين كذلك، والحكومات الإسلامية في تركيا منذ عشر سنين متفرعة من أتباعه (النوريين). رحمه الله في عليين وجمعه بالمصطفى ﷺ والصالحين: (في جنات ونهر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر).

ويعقد كل سنتين مؤتمر عالمي في إستنبول، لنشر أفكاره، حضرت مؤتمرين بثلاثة بحوث وأصدرت كتاباً بعنوان: (إخلاص الإمام بديع الزمان النورسي رضي الله عنه، ودعوة القرآن الكريم) ـ ١٩٩٨م، وما ذكرته آنفاً في الهامش خلاصة من هذا الكتاب كما أصدرت كتاباً آخر بعنوان: «إنسانية الرجل والمرأة في القرآن الكريم بمنظور الإمام بديع الزمان سعيد النورسي» عام ٢٠٠٥.

(١) وأية أمّ كانت (نورية)، كانت لا ترضعه إلا وهي على طهر ووضوء، أما =

وما هُجرِ هذا المأوى السعيد للطفل في حضن الأم إلا بسبب هجر الأمهات البيوت إما لكسب المال وزيادة الدخل، وإما لطلب اللذة البريئة بالهرب من البيت والمسؤولية، أو لطلب اللذة الحرام، وهي متزوجة، وغالباً ما يكون باتفاق مسبق مع الزوج، وهذا أمر مألوف ومقبول لديهما في الحضارة الحديثة، تحرراً من الرجعية! وانطلاقاً من مفهوم الديمقراطية عندهم! وعملاً بمفهوم الحرية الجنسية وحقوق الإنسان فيها! هكذا مفهوم الحضارة الحديثة التي ينادون بها باسم (العولمة والديمقراطية) اليوم و(النظام العالمي الجديد)!

مما مضى يتبيّن مدى تجاوب الهدي الإلّهي مع الفطرة الإنسانية التي أودعها الله ﷻ في الرجل المرأة والطفل، لأن الهادي هو ذاته الخالق، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨﴾[1]، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٤﴾[2]؟!

= والده فكان مشهوراً بالصلاح ـ وهو مضرب الأمثال، كان إذا رجع ببقراته من المرعى شدّ أفواهها، لئلا تأكل من مزارع الآخرين! انظر المكتوبات ـ الإمام سعيد النورسي /٢١، وبديع الزمان النورسي ـ فكرته ودعوته ـ إحسان قاسم الصالحي /١٨، وانظر: المكتوبات ـ للإمام سعيد النورسي/ ١٢٠.

(١) الشعراء: ٧٨.

(٢) الملك: ١٤.

الفصل الثاني

مقام الأنثى - طفلة وامرأة - في الإسلام

الفصل الثاني

مقام الأنثى ـ طفلة وامرأة ـ في الإسلام

❁ **توطئة:**

ذكرنا في الفصل الأول الصلة الوثيقة بين الفطرة الإنسانية والزواج، إذ الفطرة خلقها الله سبحانه ـ الخلاق العليم.

والزواج الذي شرّعه هو خالق النفس: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾[1]، فأحكم الخالق حبّ الزواج في الفطرة الإنسانية، ليخلد الجنس الإنساني، ثم هداه إلى منهاجه، ليتعبده به، ولتسعد به الحياة، ويسودها حكم الله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾[2].

أما هذا الفصل الثاني، فقد انتقل إلى الزوجين اللذين بهما تستمر الحياة البشرية، وهما (الأنثى والذكر)، وهما طرفا الزواج، لبيان قيمة كل منهما في الإسلام، وعظمة التوجيه الإلٰهي لهما

---

(١) الأعلى: ٢ ـ ٣.

(٢) الأنعام: ٥٧.

منفردين، ثم مجتمعين في الأسرة، وسنبدأ بقيمة الأنثى ومقامها قبل الذكر.

إذ الأنثى، وهي صغيرة محبوبة، وهي امرأة بالغة مكرمة عند ربها وعند المسلمين، لها حقوقها في التعلم والتعليم والتجارة والسياسة والدعوة والإصلاح، وحماية لها ولضعفها أعفيت من بعض مسؤولياته الصعبة كالخدمة العسكرية والجهاد وإعفائها من بعض العبادات في بعض ظروفها الصعبة، وإعفائها من النفقة على زوجها، ومن رئاسة الدولة، ولقيمة المرأة الغالية حلاّها الإسلام بآداب اجتماعية تحفظها وتعلي من قدرها، ثم إن المرأة هي الزوجة المؤنسة لزوجها هي قوة له ومصدر سعادته وراحته، وميسّرة حاجات البيت لخدمته، وهي الأم لأطفالها في رحمها قرابة السنة، وفي سريرها تسهر معهم قرابة السنتين، وفي تنشئتها لهم السنوات الخمس الأولى وما بعدها في بيتها، وهي مربية الأجيال، والمجاهدة في خضم جهودها، ثم هي الجدّة ـ بركةً في البيت بحنانها وعقلها ودينها.

كما عنيتُ ببيان قيمة الذكر طفلاً، ورجلاً، وزوجاً قواماً على الأسرة، وأباً في جهاد موصول لتربية أولاده وإعانة زوجه، وتبليغ رسالته فيها، وفي المجتمع، وجَدّاً، فيه البركة والرحمة والخبرة.

حتى إذا أدركنا مكانة كل من الذكر والأنثى في الإسلام، سننتقل بعدها إلى فصول الزواج الإسلامي، الذي يجمعهما في أسرة سعيدة كريمة، بنّاءَة للمنهاج الإسلامي فهماً وتربية وسلوكاً ودعوة، وكل ذلك عبادة موصولة وسرور متوّج برضا ربِّ العالمين.

❁ المبحث الأول:
عنايته بالأنثى ـ طفلة، تعبداً وإسعاداً لها

لكل من الذكر والأنثى مقامه في قلوب الوالدين، ولهما حبّ غامر، لا يعدله غيره، أما الأنثى فمقامها في قلوب الوالدين لا يقل عن الذكر، إذا وزنّاها بميزان الإسلام.

١ ـ أنقذ الإسلام البنت من الطامّة الكبرى التي كانت تحلّ بها حين تولد: أنقذها من (الوأد)، يقول ﷻ في محكم كتابه: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾[1]، كما أنقذها من مشاعر الحزن التي تحلّ بالبيت حين تولد، وحين تعيش مع إخوتها في الأسرة، كما يقول ﷻ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨﴾[2]!!.

لذا فإن الجاهليين كانوا ينسبون إليهم البنين، لمحبتهم، وينسبون إلى الله ما يكرهون، وهن البنات، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ۝٥٧﴾[3]، ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ۝٣٩﴾[4]؟!.

ومن رواسب الجاهلية في أحد أمراء العرب (أبو حمزة ﷺ) بتفضيله البنين على البنات وكرهه لهن، بقصتها المؤلمة في صدّ زوجها عنها، لإنجابها البنات، بأبيات من الشعر:

---

(١) التكوير: ٨ ـ ٩.
(٢) النحل: ٥٨.
(٣) النحل: ٥٧.
(٤) الطور: ٣٩.

مـا لأبـي حـمـزة لا يـأتـيـنـا يظلّ في البيت الذي يليـنـا
غـضـبـان لا نـلـد الـبـنـيـنـا تـالله مـا ذلـك فـي أيـديـنـا
إنـمـا نـأخـذ مـا أُعـطـيـنـا
ونـحـن كـالأرض لـزارعـيـنـا تـنـبـت مـا قـد زرعـوه فـيـنـا[1]

فلما بلغه هذا الشعر، رجع إليها، فاعتذر منها، وقبل رأسها وابنته. إذ أن الولد من (مني الرجل)، مصداقاً لمنطق القرآن الحكيم: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾﴾[2]. واستغفر (أبو حمزة) الصحابي الجليل من هجره زوجته بسبب ولادتها البنات اللائي يكرههن، وتاب مما يغضب الله، وهكذا فإن كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون كما في حديث رسول الله ﷺ، ورجع منيباً إلى ربه، محبّاً لزوجته ولبناته، وهنّ المؤنسات الغاليات، وهو وإخوانه الصحابة الأبرار قدوة لنا ﷺ أجمعين.

٢ ـ يقدّم القرآن الكريم ذكرها أحياناً على الذّكر في مجال الهبة: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾[3]، وأحياناً

---

(١) تربية الأولاد في الإسلام /٥٨، والطفولة في الإسلام /٢١، وتحفة العروس /٣٧ و٢٥٩، والبنات هبة الله ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾، وجدير بمن يبغضهن أن يحلّ عليه غضب الله ولكنه استعجل فتاب.

(٢) القيامة: ٣٧ ـ ٣٩، وهذا من إعجاز القرآن الكريم الذي ثبت أخيراً أنها مني الرجل فهو الذي يتحكم بنوع المولود ـ ذكراً أو أنثى، وليست بويضة المرأة.

(٣) الشورى: ٤٩.

أخرى يقدم الذكر عليها: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾[1]، ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٤٥﴾[2]. وحين قدّم الذكر على الأنثى في مجال الزواج، بسبب أن الرجل هو الإيجابي وهو الفعال، وهو المسؤول وبيده القيادة الزوجية، أما حين قدم الأنثى، فهي بحدّ ذاتها هدية مجرّدة من أي اعتبار إلا كونها المعمل الإنتاجي للبشرية، والمربية لأطفالها، وهدية مقدمة على الذكر، لأنها تستحق في كونها أنثى هذا الاهتمام الرباني بها.

٣ ـ ويؤكد النبي ﷺ المربي الحكيم قيمة البنات ومكانتها المتميزة في نصوص كثيرة، منها: «**من كان له ثلاث بنات أو ثلاث أخوات، أو بنتان أو أختان، فأحسن صحبتهنّ واتّقى الله فيهنّ**»، وفي رواية: «**فأدبهن وأحسن إليهنّ وزوجهنّ فله الجنة**»[3]، وقد ضمن الجنة برفقته ﷺ لمن ربّى ابنتين حتى تبلغا: «**من عال جاريتين (بنتين) حتى تبلغا جاء يوم القيامة، أنا وهو كهاتين، وضمّ أصابعه**»[4]. ومنها قوله ﷺ: «**من ابتُلِي من هذه البنات بشيء كنّ له ستراً من النار**»[5].

٤ ـ ويبلغ من اهتمام المصطفى ﷺ بالأنثى، وهو المربي الحكيم **أنه** يخصّ البنات الصغار بالمعزّة والتدليل: «**لا تَكَرهوا البنات، فإنهن المؤنسات الغاليات**»[6]، هكذا مؤنسة لرقّتها الفطرية

---

(١) الشورى: ٥٠.
(٢) النجم: ٤٥.
(٣) أخرجه أبو داود والترمذي وأحمد وابن حبان.
(٤) أخرجه مسلم والترمذي.
(٥) أخرجه البخاري ومسلم (اللؤلؤ والمرجان /٢٠٤).
(٦) رواه عقبة بن عامر، وأحمد والطبراني، وقال فيه الحافظ الهيثمي في =

وشفافيتها وطاعتها العفوية لأهلها، والغالية لمكانتها المحبوبة في القلوب.

ولقد هام الشعراء في حبّ البنات، للعاطفة المغروسة في الآباء، ولضعفهن ورقتهن:

لقد زاد الحياة إليّ حبّاً بناتي، إنهن من الضعاف
أحاذر أن يرين الفقر بعدي وأن يشربن رنقاً بعد صافي
أبانا، من لنا إن غبت عنا وصار الناس بعدك في اختلاف[1]

ولقد كتب ﷺ إلى امرأة اسمها (قيلة) في الدهناء في قطعة من أدم، يوصيها ببناتها: **«أن لا يُظلَمْن حقاً، ولا يُكرَهْن على مُنكِحٍ، وكل مؤمن مسلم لهنّ نصير»**[2].

٥ ـ يوصي عليه السلام بالرفق في التعامل مع الجميع الذكور والإناث: **«إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، وما يُنزَع من شيء إلا شانه»**[3]، **«إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله»**[4]، والرفق نقيض الخشونة والرعونة والغلظة: **«من يُحرمَ الرفق يُحرَم الخير كله»**[5]، ولكنه ﷺ يخص البنات بهذا الرفق، وأيّ رفق؟! إنه

= معجم الزوائد، رواه أحمد والطبراني، وفيه ابن لهيعة، وحديثه حسن، وبقية رجاله ثقات.

(١) تربية الأولاد في الإسلام /٥٢، وتحفة العروس /٥١ ـ ٥٢، ولم يذكر قائلها.

(٢) منهاج الصالحين /٧٤٠.

(٣) أخرجه مسلم وأبو داود.

(٤) أخرجه البخاري بهذا اللفظ، وأخرجه مسلم بلفظ: **«إن الله رفيق، يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف»**.

(٥) أخرجه مسلم، دون قوله: (كله)، وأخرجه بزيادة لفظ (كله) أبو داود في سننه، وابن أبي شيبة في مصنفه، والطبراني في المعجم.

كالرفق مع الزجاج والقارورة أن تتكسر بين يديك: «**رفقاً بالقوارير**»[١]، ويروي أنس ﷺ كان في سفر، ومعه غلام أسود (أنجشة)، يحدو العير، فقال له: «**ويحك يا أنجشة، رويدك بالقوارير**»[٢]. فإن عوملت بهذه الرقة، نشأت رقيقة شفافة، تحنو على زوجها وإخوانها وأولادها، وتكون زينة المجلس لطفاً ودفء.

٦ ـ إن عجز الأب عن شراء الهدايا للأطفال ـ بنين وبنات، فهو مأجور إن استأثر بالبنات الهدايا، دون علم إخوانهن الصغار، جبراً لضعفهن، وإشباعاً لعاطفتهن، وهي رمز مقامهنّ في قلبه، كما ورد في الأثر، وكما أشار إلى هذا رسول الله ﷺ: «**سوّوا بين أولادكم في العطية، فلو كنت مفضلاً أحداً لفضّلت النساء**»[٣]، علماً بأن العدل بين الأبناء والبنات واجب لدوام الانسجام بينهم جميعاً، وانتزاع الأحقاد والحسد فيما بينهم: «**اعدلوا بين أولادكم، حتى في القُبَل**»[٤]، «**اتقوا الله واعدلوا في أولادكم**»[٥]. وعلى الأب أن لا يفضل ابناً على البنت وبالعكس: «**من كانت له أنثى فلم يئدها، ولم يُهنها، ولم يؤثر ولده عليها، أدخله الله الجنة**»[٦].

---

(١) أخرجه البخاري.

(٢) أخرجه البخاري (اللؤلؤ والمرجان ١٠٤/٤).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير والبيهقي في السنن الكبرى، وابن عدي في الكامل، وسعيد بن منصور في سننه، والخطيب في تاريخ بغداد، وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني في تلخيص الحبير: (وفي إسناده سعيد بن يوسف، وهو ضعيف).

(٤) عزاه المناوي إلى ابن النجار في التاريخ.

(٥) أخرجه مسلم.

(٦) أخرجه أبو داود والحاكم، وصححه، وابن أبي شيبة في المصنف، وأحمد، والبيهقي في شعب الإيمان.

٧ ـ كرّم الله البنت في محكم كتابه الكريم، وسمّاها باسمها، وتقبّلها قبولاً حسناً، وأحسن تربيتها: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾[(١)].

٨ ـ إن اهتمام الإسلام البالغ بالبنت جعلها تحت وصاية أوليائها، الأب، أو الجد، أو العم، أو الأخ، . . . . في التأديب والتربية والتعليم، وتنمية أموالها، وليست ولاية تملّك واستبداد، بسبب الاهتمام البالغ بتنشئتها، وهي مربية الأجيال.

٩ ـ أوصى النبي العربي ﷺ بزينة البنات وحليّهن، وكسوتهن الجذابة ومظهرن الجميل، والترغيب بتزويجهنّ: **«زوجوا أبناءكم وبناتكم، وحلّوهُنّ الذهب والفضة، وأجيدوا لهنّ الكسوة، وأحسنوا ليهن بالنُحلة، ليرُغَبَ فيهن»**[(٢)].

وهكذا فإنه ﷺ يوصي بما يتجاوب مع الفطرة التي تنطوي عليها نفسية البنات من حبهنّ للحلي والملبس الجميل والمظهر الوضيء، فلا يشعرن بالحرمان والإحباط، لئلا تنكسر نفسياتهن ويشعرن بالهوان! وفي هذا إشباع لرغبتهن، وترغيب بتزويجهنّ، وتوثيق من شخصياتهن.

وفي مقام البنات الصغار في قلوب آبائهن، أنشد الشاعر الأب:

---

(١) آل عمران: ٣٦ ـ ٣٧.

(٢) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس.

لـولا بـنـيّـات كـزُغـب الـقـطـا رُدِدْن مـن بـعـضٍ إلـى بـعـض
لـكـان لـي فـي الأض مـضـ طـرَب ذات الـطـولِ والـعَـرْض
وإنـمـا أولادنـا بـيـنـنـا أكـبـادُنـا تـمـشـي عـلـى الأرضِ
لـو هـبّـت الـريـح عـلـى بـعـضـهـم لامـتـنـعـت عـيـنـي عـن الـغـمـض[1]

* * *

---

(١) تربية الأولاد في الإسلام ١/٥٢ ـ ولم يشر إلى قائلها.

❁ المبحث الثاني:

عناية الإسلام بالأنثى - امرأة - تعبداً، وإسعاداً لها

ذلك مقامها في الصغر بنتاً، أما مقامها امرأة فمقام عزيز مرموق، كريم على الله ﷻ، وإن أدب التعامل مع المرأة وإنزالها في مقامها الكريم، إنما هو عبادة يتعبّد بها المسلم ربه وإسعاد لها، ومأجور عليها، وموزور إن قصّر أو انتقص قدرها، وإن جميع الحقوق في الشريعة الإسلامية - كتاباً وسنة - في سائر مجالات الحياة الشخصية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية مشرعة للرجل وللمرأة معاً، وكل الخطابات (للناس والذين آمنوا) تدخل فيها المرأة، إلا ما استثنيت منه المرأة بنص خاص.

١ - هي مكرمة عند الله تعالى: تكريمه الجنس الإنساني عموماً: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾[١]. وهذا قمة التكريم لهما (الرجل والمرأة)، وليس له رصيد، ولا يدانيه لا في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان من الأمم المتحدة الصادر عام ١٩٤٨م، ولا في غيره.

يؤكد المصطفى ﷺ هذا التكريم والتقدير لمقامها بقوله: **«ما أكرمهن إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم»**[٢]، فتكريمها عبادة، لأنه امتثال لأمر الله ﷻ، وإسعاد لها.

---

(١) الإسراء: ٧٠.

(٢) أخرجه ابن عساكر، وذكره (فقه السنة) ولم يشر إلى مدى صحته أو روايته.

ومن أعظم مظاهر التكريم أنه ﷺ يقف لامرأة عجوز، في هجير الظهر تحت أشعة الشمس يستمع إلى شكواها على زوجها: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ①﴾[1].

٢ ـ **أدب التعامل معها**: قال ﷺ: «**ألا فاستوصوا بالنساء خيرا**»[2]، في أجلِّ خطبه في وداعه لأمته في حجة الوداع، ومن أواخر كلماته قبل وفاته وصيته بالنساء وتحذيره من إيذائهن وغمط حقوقهن: «**اللَّهَ اللَّهَ في النساء**»[3]، وإن التزامنا بوصايا النبيّ ﷺ الكريمة في تعاملنا مع النساء، إنما **هو** عبادة وطاعة لله ولرسوله ﷺ، نثاب عليه.

٣ ـ **«النساء شقائق الرجال»**: هكذا يشبه الرسول المربي المرأة، كأن تقسم التمرة شقين ـ الشق الأول يمثل المرأة، والثاني الرجل، لأن المرأة خلقت من الرجل ـ ضلعه، فهي تحنّ إليه وعزيزة عليه، ويحنّ إليها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾[4].

ألا فليفقه الرجال هذا المعنى الجميل في كونهن شقائقهم، ليزدادوا برّاً بهن واعتزازاً وتكريماً إضافة إلى أنهنّ خلقن من ضلع الرجل: «**استوصوا بالنساء خيراً، فإن المرأة خلقت من**

---

(١) المجادلة: ١.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ عبدالرزاق في المصنف، معضلاً، وفيه إبهام، وأخرجه مسلم بلفظ: «**اتقوا الله في النساء**».

(٤) النساء: ١.

ضِلَع..»[1]، وهذه الرعاية الكريمة سعادة للمرأة وسرور.

٤ ـ النساء ـ خلقهن الله تعالى محبوبات للرجل: «حُبِّبَ إليّ من دنياكم: النساء والطيب، وجعلت قرة عيني الصلاة»[2]، وحين يشعرن بهذا الحب يشعرن بالسعادة كاملة تغشى قلوبهن، لا أحبَّ على المرأة من حبِّ زوجها لها!.

ولما كنّ محببات إلى رسول الله ﷺ، فكيف لا يكنّ محببات إلى جنس الرجال؟!.

كذلك فإن الله تعالى زينهن لنا: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[3]، لغرض إحكام التجاذب بينهما، فتدوم باجتماعهما الحياة الأسرية، ويُنجَب من هذا التحاب والانسجام الذرية، غير أن هذا الحب والتزيين الفطري للنساء في قلوب الرجال له ضوابطه، وحدوده: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾[4]، وإلاّ انقلبت المرأة شرّاً ووبالاً على نفسها وعلى الرجال، حينئذ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه النسائي والطبراني وأحمد وأبو يعلى وأبو سعد في الطبقات بلفظ: **«حبّب إليّ من الدنيا: النساء والطيب، وجعل قرة عيني في الصلاة».** وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني في تلخيص الحبير: (رواه النسائي، وإسناده حسن)، وأخرجه بدون لفظ (من الدنيا) النسائي وأحمد والطبراني في المعجم الأوسط وأبو يعلى، وأخرجه بلفظ: **«إنما حبّب إليّ من دنياكم النساء والطيب، وجعل قرة عيني في الصلاة»**، محمد بن نصر المروزي في (تعظيم قدر الصلاة)، وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: أخرجه النسائي وغيره بسند صحيح.

(٣) آل عمران: ١٤.

(٤) البقرة: ٢٢٩.

تكون أضرّ فتنة عليهم: **«ما تركت بعدي في الناس فتنةً أضرّ على الرجال من النساء»**[1]، وما دامت النساء محببات إلى رسول الله، وهن زينة للرجال، فإن حبهن في الحلال عبادة، من ثمارها الأجر والثواب وزيادة الانسجام والتماسك بين الزوجين، وهذا ما يوصي به الله في الحياة الزوجية، إذ الحبّ الذي يشيع في جو الأسرة عبادة موصولة وسعادة مرموقة، وبغضهن والإساءة إليهن، ينكرها ﷺ علينا، وتنكرها الفطرة، والإسلام فطرة.

٥ ـ أما نقصان (العقل والدين) الذي توصم به المرأة وهماً، من حديث رسول الله ﷺ الصحيح، فإنه بسبب نصف شهادة الرجل، وعدم الصلاة والصيام في رمضان وأيام الحيض. وهذان السببان ليسا اتهاماً للمرأة، ولكنهما بيان لحالتها الفطرية في النسيان وحالتها العابرة أيام الحيض: **«يا معشر النساء تصدّقن، وأكثرن من الاستغفار، فإني رأيتكن أكثر أهل النار؟»** فقالت امرأة منهن جزلة (فصيحة): وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟! قال: **«تُكثِرن اللعن وتَكفرن العشير، وما رأيتُ من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لبّ منكن»**. قالت: يا رسول الله، وما نقص العقل والدين؟ قال: **«أما نقصان العقل فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل، فهذا نقصان العقل، وتمكث الليالي ما تصلّي وتفطر في رمضان، فهذا نقصان الدين»**[2]، ولو أن هذا النص اتهام لعقل المرأة، ما قال ﷺ: **«وما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلبَ لذي لبِّ منكن»** ـ أي أن النساء قد يغلبن عقول الألباب والأذكياء من الرجال!.

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.
(٢) أخرجه البخاري ومسلم، وهذا اللفظ لمسلم.

وإن نقص العقل والدين ليس اتهاماً لعقلها ولا لدينها، كما بيّنا، كذلك فإنه لا ينقص من قيمة عبادتها، إذ أن تعبدها كتعبد الرجل من خلال السلوك مع الله، ومع الناس، ومن خلال الجزاء الدنيوي والأخروي، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾[1].

٦ ـ **وهي تتعبد الله تعالى بعملها التجاري**: إعالةً لأولادها أو إعانةً لزوجها في المورد المحدود، وقد جعل الإسلام لها ذمة مالية كاملة، في جميع الحقوق والالتزامات بمجرد البلوغ كالرجل سواءً بسواء... إذ لم يجعلها قاصرة التصرف المالي، علماً بأنها كانت محرومة في الغرب من هذا الحق إلا قبل بضعة عقود... فهي في الإسلام لها حق التصرف، والعقود المالية من غير إذن زوج أو أب أو وليّ... ولها حق البيع والشراء... ولكن الإسلام رغّب ألا تباشر المرأة العمل التجاري إلا عند الضرورة، لأن مسؤولية بيتها أهم.

لقد اقتصر الحجر في الإسلام على (الصغر والجنون)، في حين أن القانون الروماني والفرنسي حتى عام ١٩٣٨م جعل الحجر على ثلاثة: (الصغير، والمجنون، والأنثى) للحدّ من تصرفهم المالي.

٧ ـ **وهي تتعبد الله تعالى في التعلم والتعليم**: سواء بسواء

---

(١) الأحزاب: ٣٥.

كالرجل المسلم، وهذا إسعاد للمرأة، وما دام العلم أمراً إلٰهياً، فإن تحقيقه عبادة، بل أسمى درجات العبادة، وكل ما ورد في سموّ العلماء من الرجال يسري على المرأة: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾[1]، والرباني - رجلاً أو امرأة، هو العارف بالله الذي يقصر حياته على العلم - ما بين تعليم وتعلّم (دراسة). غير أن **بعض العلوم ألزمها بها الإسلام**، كالقراءة والكتابة والعربية والحساب، والعلوم الشرعية والعقيدة والحلال والحرام... وجعل **بعض العلوم الأخرى مندوباً إليها**، كعلوم تربية الأولاد والتدبير المنزلي **فيما** يحقق اتقانها لمسؤولياتها أماً وزوجة وربة بيت بما يشيع السعادة في الأسرة، وجعل **العلوم الأخرى مباحة** بشرط انضباطها بالضوابط الإسلامية النافعة لها: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**»[2]، في أيّ علم نافع، وتشمل كلمة (مسلم) الذكر والأنثى، كما ذكرنا.

وإن المرأة المتعلمة هي التي ترضع أولادها الدين والأدب والسلوك الحسن، والعكس صحيح.

ليس النبت ينبت في جنان ... كمثل النبت ينبت في الفلاة
وهل يُرجى لأطفال كمال ... إذا ارتضعوا ثُدِيّ الناقصات[3]

---

(١) آل عمران: ٧٩.

(٢) أخرجه ابن ماجه والطبراني وابن جميع الصيداوي في معجم الشيوخ وأبو بكر الإسماعيلي في معجم الشيوخ، وأبو يعلى في مسنده، والقضاعي في مسند الشهاب، والبيهقي في شعب الإيمان. وقال الحافظ السيوطي في تدريب الراوي ١٧٤/٢ : (هو حديث حسن، فقد قال المزّي: إن له طرقاً يرتقي بها إلى رتبة الحسن).

(٣) تربية الأولاد في الإسلام /٥٢، ولم يذكر قائلها.

وصدق أحمد شوقي إذ قال:

وإذا النساء نشأن في أمية ... رضع الرجال جهالة وخمولا

٨ ـ وهي تتعبد الله تعالى من خلال إسهامها في المشورة السياسية في الحكم، وهذه سعادة لها بل هو واجب عليها: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[١]. وتدخل النساء مع الرجال في هذا الحق، كما تدخل في جميع الحقوق التي لم تستثن منها المرأة، كما ذكرنا، والمجتمع المسلم، ذكراً أو أنثى ما دام بالغاً، له رأي في واقع الدولة ومصيرها، إذ هو خليفة الله في أرضه، مسؤول عن ممارسة هذه المسؤولية الشرعية، ما فتىء كل منهما مؤمناً وصالحاً، وقد ورد في الأثر: «ما منكم من أحد إلا وهو على ثغرة من ثغور الإسلام، فالله الله أن يُؤتَى الإسلام ومن قِبَلِه».

ولها أن تسهم كذلك في المجال الدعوي: في سائر ما يقيم المعروف ويزيح الفساد، كالرجال في المسؤولية، وممارسة العمل الدعوي أسمى درجات العبادة: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾[٢]، ولكن لكلّ مجالاته في حدود ظروفه، وطاقاته: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾[٣].

---

(١) الشورى: ٣٨.
(٢) فصلت: ٣٣.
(٣) التوبة: ٧١.

وهذا يتضمن حق إبداء الرأي في تقويم الحاكم ومحاسبته، وتذكيره وتوجيهه وهو عمل تعبّدي.

أما القصة المشهورة عن عمر الفاروق ﷺ وهو يصغي لنقد المرأة، على منبر رسول الله ﷺ حين أراد أن يحدد من المهر الكثير، فاعترضته: (على رِسلك يا ابن الخطاب، إن الله يمنحنا القنطار، وأنت تمنعنا الدينار)! فرجع إلى نفسه نادماً معلناً خطأه: (حتى النساء أفقه منك يا عمر). وفي قولة أخرى، موجهاً خطابه إلى الرجال ـ حياء من نقد امرأة: (أليس فيكم رجل رشيد، يهديني إذا ضللت؟ أصابت امرأة، وأخطأ عمر)[1]!.

٩ ـ تعبّد المرأة بما تَرِث وما تورِّث يسعدها: فحينما ترث تعف بمال الإرث عن المحارم وتتقي الله في إنفاق المال بوجوهه

---

(١) على هذه القصة المشهورة تخطئة مصيبة في (تاج العروس) ـ تحفة العروس ص٧٧ في الهامش، ولقد ذكرتها قصداً في المتن لأنبه على خطئها، ثم أبين هذا الخطأ من زاويتين ـ حديثية وفقهية ـ كما ذكرها (الإستنبولي ـ محمود) في كتابه آنفاً:

الحديثية: جاءت القصة من روايات عديدة، بعضها فيه انقطاع، وبعضها فيه ضعف، بسبب مجالد بن سعيد، أو قيس بن الربيع، وكلاهما ضعفه ابن حجر العسقلاني.

الفقهية: فإن التغالي في طلب المهور حرام، لما يترتب عليه من المفاسد، والآية السابقة تفيد تطوع الزوج من نفسه، فدفع لزوجته قنطاراً أو قناطير، إما أن تطلب هي ووليها، فهذا هو المنهي عنه، لا يعقل أن تعترض هذه المرأة على الخليفة، وأن يسكت عنها، فضلاً عن أن يقول: أخطأ عمر، وأصابت امرأة! وخاصة وقد علمنا فيما سبق عن المهر. جعل الرسول ﷺ من يُمن المرأة ـ أي بركتها يسر مهرها...

الشرعية وتؤجر بذلك، كما تؤجر بدعائها لصاحب الإرث المتوفى زوجاً أو غيره، وحينما تورِّث يصلها الثواب في قبرها بهذا المال الذي تركت، فهي في عبادة موصولة، وهي ميتة: «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»[1]، وهي مسرورة بهذا الثواب، وهي في القبر!.

لو احتسبنا إرث المرأة بالأرقام، لفضلت على الرجل فيه: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾[2]. فالمرأة إذا أخذت مبلغاً ما فإن نصيبها تحتفظ به لنفسها، وليس من حق أحد أن ينتزع منه القيراط، ولا تكليف عليها في الإنفاق على نفسها، ولا على أحد، إذ الرجل ينفق عليها، كما ينفق على جميع أفراد البيت شرعاً، إضافة إلى أنه ملزم بدفع المهر إلى زوجته، وهو لها وحدها لا حق له ولا لأحد به، وملزم بشراء حاجات البيت كلها، وليست هي ملزمة بشيء من الإنفاق، سواء أكانت زوجة أم مطلقة أم أرملة أم أماً... إذ أن ولي أمرها ملزم بالصرف عليها، وإن عجز أو بقيت وحيدة فالدولة مسؤولة عن إعانتها، فنتيجة الحساب أنها تحتفظ بأضعاف ما يأخذه الرجل، وفي الفقه تفصيل دقيق للإرث، فعليها إن طالبت بالمساواة أن تطالب بمساواتها في الأعباء والواجبات كذلك، وهذا غبن ماليّ للمرأة.

وفي إكمال النص أعلاه تفصيل الإرث، وقد يكون للزوجة

---

(١) أخرجه البخاري.

(٢) النساء: ١١.

نصف الميراث ولكل من الأبوين السدس، وللأم الثلث من الميراث في مجال آخر: ﴿وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾[1].

وفي حالات أخرى في الإرث يحق للمرأة نصف ما ترك أخوها الميت، إن لم يكن له ولد، وإن كانتا أختين فلهما الثلثان من تركته، وإن كان له ولد رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين، يوضحها قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾[2]. أي: أن المرأة تأخذ ـ في بعض الحالات أضعاف الرجل من الميراث، كما في حال رجل مات، وترك ابنة وعشرة إخوة، فإنها تأخذ النصف، ويأخذ إخوتها كلهم النصف الآخر»[3].

١٠ ـ تعبّد المرأة في حضورها دور العبادة ودور العلم، وفي الحج، وفي سائر العبادات، وفي حديث البخاري: **«إذا استأذنت امرأة أحدكم إلى المسجد فلا يمنعها»**، كذلك فإن تعلمهن فرض كما ورد سابقاً، ولقد وجدنا في تأريخ السلف الصالح عالمات وفقيهات ومحدثات، يدرسن على عشرات

---

(١) النساء: ١١.

(٢) النساء: ١٧٦.

(٣) تحفة العروس ـ هامش /١٩٨.

الشيوخ، ومنهن من تخرج بعلمهن كبّار العلماء، وهذا الإمام البغدادي أجازته امرأة! ومن رواة الأحاديث الصحاح نساء كثيرات في كتب الحديث، ومنهن أديبات وخطيبات ومقرئات...

قالت عائشة رضي الله عنها: «نعم النساءُ نساء الأنصار، لم يمنعهن الحياء في أن يتفقهن في الدين»[(١)].

ولم يكتب على المرأة الجهاد، لأنها تلد الرجال الذين يجاهدون، وتربيهم مجاهدين بالتربية الإسلامية، بل إن كل خلية في تكوينها معدّة عضوياً ونفسياً لهذا العمل الإنتاجي والتربوي:

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق[(٢)]

فالمرأة في رسالتها في البيت أنفع في موقعها من الجهاد، مع أنها لا يحرمها الإسلام منه ولا من ثوابه إن استطاعت الإسهام فيه، وأُعِدت له الإعداد المناسب.

والرجل الواحد يمكنه أن يجعل أربع نساء معامل إنتاجية، يملأن الفراغ الذي تتركه المقتلة في الحروب في فترة من الزمن، كما كان زمن الفتوحات الإسلامية وتحرر الشعوب، ولكن ألف رجل لا يملكون أن يجعلوا امرأة تنتج أكثر من رجل واحد!

---

(١) أخرجه مسلم موصولاً، والبخاري تعليقاً، من قول سيدتنا عائشة رضي الله عنها، ولفظه: «نعم النساءُ نساء الأنصار، لم يمنعهن الحياء في أن يتفقهن في الدين»، وأخرجه أيضاً ابن خزيمة وأبو داود وابن ماجه وعبدالرزاق في مصنفه، من قول عائشة رضي الله عنها.

(٢) أحمد شوقي.

١١ ـ مكانة المرأة المسلمة عند الله تعالى وعند جبريل عليه السلام: وختاماً لقيمة المرأة المسلمة التي أكرمها الله تعالى بها، مما أوردنا آنفاً، أحببنا أن نتوجه بتاج فضليات العالَمين اللائي امتدحهن القرآن الكريم، لترنو المرأة المسلمة أبداً إلى منازلهن، فتتسامى بتعبدها السلوكي إلى مقامهن.

تذكر النصوص النبوية نساء في مقام علوي، يستحققن تحية الله تعالى لهن وتحية جبريل عليه السلام، وهذه الشواهد السالفة تمثل أعلى منزلة تتبوؤها المرأة في عمر التاريخ، وهي تكريم لها أيّ تكريم.

❀ نماذج لفضليات النساء اللاتي كرّمهن الله تعالى في الكتاب، ومنهن:

● **خديجة** رضي الله عنها: أتى جبريل النبي ﷺ: «يا رسول الله، **هذه خديجة وقد أتت معها إناء... فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة، لا صخب فيه ولا نصب**»[1].

● **مريم عليها السلام**: هي أفضل نساء العالمين في الجنة، كما أخبر عنها القرآن الكريم: ﴿يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[2].

● **عائشة** رضي الله عنها: «يا عائشة هذا جبريل يقرأ عليك

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم (اللؤلؤ والمرجان/ ج٣/١٣٩).

(٢) آل عمران: ٤٢.

السلام، فقالت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته، ترى ما لا أرى» - تريد النبي ﷺ[1].

● **فاطمة** رضي الله عنها: إن فضليات النساء من أهل الجنة ما ورد في الحديث الصحيح الذي فيه أفضلية فاطمة رضي الله عنها: **«لقد كمل من الرجال كثير، وكمل من النساء أربع: مريم بنت عمران، وآسيا امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد... وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»**[2].

وفي الحديث الصحيح: **«خير نسائها ابنة عمران، وخير نسائها خديجة»**[3].

* * *

---

(١) أخرجه البخاري.

(٢) أخرجه البخاري (اللؤلؤ والمرجان/ ج٣/١٣٨)، والترمذي وابن ماجه وابن حبان: **«كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسيا امرأة فرعون، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»**، وأخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره بلفظ: **«كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم وآسيا امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد»**.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم (اللؤلؤ والمرجان/ ج٣/١٣٨)، وأخرجه الترمذي والنسائي في السنن الكبرى وأحمد.

❁ المبحث الثالث:

استثناء المرأة من بعض مسؤوليات الرجال، رحمة بها وتكريماً وإسعاداً

أدركنا المقام الذي بوّأه القرآن الكريم للمرأة في مساواتها بالرجال، فيما لا يعارض طبيعتها ـ امرأة، وما دام هذا المقام قد مكنها منه الله تعالى ورسوله في الكتاب والسنة، فالتعامل مع المرأة بهذا المقام السامي لها إنما هو عبادة، لأنه تنفيذ لنصوص الإسلام.

أما في احتساب هذه الطبيعة الأنثوية، وما يترتب عليها من مسؤوليات، فقد أعفاها الإسلام من بعض أعمال الرجال، رحمة بها، وتجاوباً مع نفسيتها وفطرتها وضعفها، وصيانتها من ذئاب البشر، والتشريع الإسلامي بعيد النظر في احتساب الفروق الكامنة بين الجنسين في تحديد مجالات العمل، إذ هو من الخالق الهادي: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾(١)!

١ ـ **إعفاؤها من الصيام في حيضها وفي حملها**، إذا أدى إلى ضررها، وفي أيام الوضع، وحين الرضاع، إذا تحقق الضرر بسبب الصيام، إذ: «**لا ضرر ولا ضرار في الإسلام ومن ضارّ ضاره الله، ومن شاقّ شاقه الله**»(٢). وهي في عدم صومها مأجورة، إذ هي مطيعة لربها في هذه الرخصة، ولو رفضتها ولم

(١) الملك: ١٤.

(٢) أخرجه ابن ماجه وأحمد وأبو نعيم والدارقطني والبيهقي والطبراني.

تعمل بها فإنها موزورة، يقول ﷺ: **«إن الله يحب أن تؤتى رخصُه كما يحب أن تؤتى عزائمه»**[1].

٢ ـ **إعفاؤها من النفقة على زوجها**، ولو كانت غنية، إذ مالها لها، لا حق له فيه ولا لأحد بالتصرف به إلا برضاها، علماً من الله ﷻ بمدى حرص المرأة على المال، بسبب ضعفها وصعوبة حصولها عليه، وبسبب غموض مستقبلها، وغنى المرأة وسيلة من وسائل الاستقرار النفسي لها، وإشراق نفسها بالسعادة، يعينها على العبادة الخاشعة، وعُدمُها وحرمانُها المال يضعف من خشوعها في العبادة، إضافة إلى المشكلات التي تحل بالأسرة، والشقاء الذي يتبعه.

٣ ـ **إعفاؤها من جميع الأعمال التي تجعلها عرضة لمخالطة الرجال**، حذراً من افتراسها! أو مضايقتها، أو سلبها أعَز ما تملك ـ شرفها وعرضها أو إذلالها بسبب الحاجة، وحمايةً لضعفها. وأقل ما في مخالطة الرجال الوسوسة الشيطانية في مجال الجنس، التي يضطرب فيها الإيمان ويضعف وتهزل العبادة بسببه.

٤ ـ **إعفاؤها من جميع الأعمال الجسمية المنهكة**، بسبب ضعف قدرتها على التحمل، كأن تعمل في معامل الصلب والحديد والفحم الحجري، ومع المكائن الضخمة، أو حمل الصناديق الثقيلة في المعامل، ومراعاة ضعفها من خلال العادة الشهرية والحمل والولادة والحضانة والرضاع.

---

(١) أخرجه ابن حبان بهذا اللفظ، وكذلك الطبراني في المعجم الكبير والأوسط، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: ورجال البزّار والطبراني ثقات. كما أخرجه البيهقي في السنن الكبرى وشعب الإيمان.

وحين تنهك المرأة فوق طاقتها إنما ذلك إهانة لها واضطهاد لأنوثتها، وقيود لحريتها التي تكبت خشوعها في العبادة، أو تحرمها من ممارسة الصلوات وسائر العبادات الأخرى.

٥ - إعفاؤها من جميع أعمال الرجال المحرجة لها، إلا التربية والتعليم والطب والتدبير المنزلي وتربية الطفل والمجال الخيري والنسوي، إذ فيه مصلحة لها وثواب؛ ولجنس النساء اللائي تتعامل معهن.

٦ - إعفاؤها من المساواة بالرجل في الشهادة: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾[١].

وليس ذلك انتقاصاً لقيمة المرأة - عقلها ودينها وتعبدها للأسباب الآتية:

أ - المرأة يحجبها حضور الأحداث لتشهدها، بسبب مسؤولياتها في البيت، فهي معزولة عن الأحداث لتشهد فيها، فإن شهدت فشهادتها غير دقيقة، بسبب انشغالها، والشهادة في الأمر المهم الذي يخصّ الشاهد تكون أوثق وأدق ممن لا شأن لهم ولا اهتمام به، لذا فاحتمال نسيانها أكثر من الرجل.

ب - ذهب كثير من الفقهاء إلى أن شهادة النساء لا تقبل في الجنايات، من قتل وسفك دماء، إذ يحتاج الشاهد في هذه

(١) البقرة: ٢٨٢.

إلى رباطة جأش وإرادة صلبة، في حين أن المرأة إذا حضرت الجرائم، إما أن تصرخ وتولول وتبكي، وإما أن تهرب، وإما أن يُغمَى عليها، فكيف تصف الجريمة والمجرمين وتشهد!؟

ج ـ وهنالك عامل عضوي خِلْقي في المرأة يتصل بالشهادة، وهو ما اكتُشِف في العَقد المنصرم، من أن للمرأة فصيّن في الدماغ ـ للكلام والذاكرة، فحينما تتكلم تنسى، ثم تتذكر: ﴿أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ﴾[1]، في حين أن للرجل فصاً واحداً للكلام والذاكرة معاً، لذا فإن النساء جميعاً بلا استثناء يتكلمن كثيراً. إنها صفة عامة لجنس النساء بسبب ما ذكرنا، وهذا ما أدركته في أسفاري الكثيرة في العالم العربي والإسلامي والغربي.

د ـ ثم إن شهادتها متميّزة عن شهادة الرجل في ماله صلة بجنس المرأة، فيما لا يطلع عليه غيرها، كالولادة والبكارة وعيوب النساء في القضايا الباطنية، حين كان لا يتولى توليد النساء وتطبيبهن والاطلاع على عيوبهن الجنسية والعضوية إلا النساء سابقاً.

٧ ـ إعفاؤها من القضاء[2] ـ وهو لغة الحكم والفصل والقطع ـ وهو اصطلاحاً ـ الحكم بين الخصوم وحين تُحمَّل أعباء

(١) البقرة: ٢٨٢.
(٢) تولية المرأة القضاء شرعاً وقانوناً ـ د.كامل شطيب الراوي ـ بحث للترقية العلمية ـ منشور في مجلة الدراسات الاجتماعية ـ جامعة العلوم والتكنولوجية ـ صنعاء: ٢٠٠١ ـ ملخص بإيجاز.

القضاء، وعاطفتها هي الغالبة عادة، فإنها تحمّل فوق طاقتها، مما يخدش في عبادتها، حين تشعر أنها قضت بغير عدل، أو بشبهة ظلم.

ولقد انقسم فقهاء الأمة إزاء تولية المرأة القضاء، فمنهم من منعها منعاً مطلقاً، كالماوردي سابقاً في الأحكام السلطانية، وحالياً كثيرون منهم مفتي الأزهر والأفغاني ومصطفى السباعي - وغيرهم، ومن أدلتهم: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾[1]، «**لن يفلح قوم ولّوا أمرَهم امرأة**»[2]، ولم يؤثر عنه ﷺ ولا عن أحد من الخلفاء الراشدين أن ولّوا امرأة القضاء أو ولاية بلد، فهذا الحكم إجماع. ومنهم من أباحه مطلقاً - الطبري وابن حزم والإمام مالك، ولهم بعض الأدلة، وهي أضعف من سابقتها، ومنهم من أجازه باستثناء الحدود - القصاص، وهو رأي أبي حنيفة.

٨ - إعفاؤها من رئاسة الدولة: «ما أفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة»[3] قالها ﷺ حين بلغه أن الفرس ولوا للرئاسة عليهم إحدى بنات كسرى بعد موته، أما الولاية بإطلاقها فليست ممنوعة عن المرأة.

ورئيس الدولة هو القائد والرأس المفكر ووجهه البارز ولسانه الناطق، وهو الذي يعلن الحرب ويقرر السلم والمهادنة ويتولى القضاء في الخصومات، . . . وهذه المسؤوليات الخطيرة

---

(١) النساء: ٣٤.
(٢) أخرجه البخاري.
(٣) أخرجه البخاري.

لا تتفق مع تكوين المرأة النفسي والعاطفي، والاجتماعي - ربة الأسرة، ولئن وجدت نساء حازمات قدِرنَ على ذلك، فهن نادرات أقل من ١٪ من الرجال في عمر التأريخ، ولا يقاس على الشذوذ.

ثم إنها بهذه المسؤولية الضخمة يحول انشغالها بظروفها كامرأة أو أم عن ممارسة مسؤوليتها، إضافة إلى ضعف قدرتها عليها، مما يؤول بالنهاية إلى شعورها بالتقصير مع ربها حين تقصيرها مع شعبها، وتكون عبادتها في قلق واضطراب وانفلات من الخشوع.

٩ - إعفاؤها من وزارة الدفاع أو رئاسة الأركان للجيوش أو قيادة الفيالق، وهذا واقع العالم اليوم - رحمة بها، أن نحمّلها ما لا تطيق، ورحمة بالجيوش التي لا تحسن قيادتها، فتحل الكوارث بها، وتتغلب الدولة بخسارتها في حروبها.

١٠ - إعفاؤها من الخدمة العسكرية والجهاد: إذ هي فريسة الأعداء في الحروب، إضافة إلى ما فطرت عليه من الخوف والرعب من مشاهد الموت والدماء والأشلاء، إضافة إلى اقتحامها!

أمّا ما ذكره التاريخ الإسلامي عن جهاد المرأة فذلك شذوذ عن عموم النساء، لا يقاس عليه، غير أنهن كنّ يخرجن مع الجيوش يضمدن الجرحى، ويشجعن على الجهاد، وفي الحديث النبوي: «خرج الرسول ﷺ بالنساء، في الحرب يداوين الجرحى، ولم يقسم لهن من الفيء شيئاً، ولكن نفلهن»، ومع ذلك ففي حالة هجوم الكفر على الإسلام - وطناً وأمة، يلزم الأمة جميعها بالنفير العام الذي يشمل (الرجال والنساء)، ويخرج النساء من غير

إذن أزواجهن للدفاع: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[1]، وهذا يعني شرعاً أن تلتزم الدولة المسلمة اليوم بإعداد الأمة كلها جيشاً للطوارىء، وتعدّ أقصى درجات القوة: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[2]، ومن وسائل القوة هذه: (إعداد النساء القادرات على حمل السلاح بعد استيفاء تسليح الرجال)، لا سيما في هذه الحملة الشرسة في القرن الماضي والحالي تحت شعار: (دمّروا الإسلام، وأبيدوا أهله)!، لصدّ الأعداء عنا: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾[3].

* * *

(١) التوبة: ٤١.
(٢) الأنفال: ٦٠.
(٣) البقرة: ١٩٠.

❁ المبحث الرابع:
جهاد المرأة المسلمة

ومع إعفاء الإسلام المرأة من الجهاد، ولكنه لم يمنعها، ولقد خاضت بعض النساء في عمر التاريخ الإسلامي معارك مهولة، ولقد أسهمت بالجهاد ـ مثالاً ورعاية للجرحى والعطشى.

❁ ومن المجاهدات الصحابيات:

١ ـ **أم عمارة ـ نسيبة بنت كعب الأنصارية**، حين حضرت موقعة أحد تسقي الماء وتضمّد الجرحى، فلما دارت الدائرة على المسلمين نذرت نفسها دفاعاً عن رسول الله ﷺ، وأصيبت بأسهم ونبال، وجرحت جراحاً كثيرة[1]، وأصيبت بضربة سيف أحدثت جرحاً عميقاً في عاتقها، وهي التي دخلت معركة (حديقة الموت) ضد مسيلمة الكذاب في حروب الردة، دخلتها بيدين، وولدين، وخرجت منها بولد واحد ويد واحدة! ثم ماتت من أثر هذا القطع.

٢ ـ **حمنة بنت جحش الأسدية**: كانت تسقي العطشى

(١) ابن هشام ـ السيرة ٣/٣٢ بإسناد منقطع، ومغازي الواقدي ١/٢٦٨ وهو ضعيف. ولقد كان لمقام نسيبة بنت كعب خير من مقاتلات وفلان.، كما أثنى عليها رسول الله ﷺ، وإنها لحاجزة ثوبها على وسطها، حتى جُرحت (١٣) جرحاً، ثم وجدت غاسلتها حين حضرتها الوفاة هذه الجروح عدّاً. وكان ابن قميئة يضربها على عاتقها وكان أعظم جراحها، لقد داوته سنة، ثم نادى منادي النبي ﷺ إلى حمراء الأسد، فشدت عليها ثيابها، فما استطاعت من نزف الدم، ومكثت ليلتها تكمد الجراح.

وتداوي الجرحى[1].

٣ ـ **أم سليط**: كانت تحمل قرب الماء لسقاة المسلمين[2].

وقد كرمها عمر الفاروق ﷺ بالعقد: (أم سليط أحق بالعقد من نساء الأنصار، ممن بايعن رسول الله ﷺ، فإنها كانت تزفر ـ أي تحمل ـ لنا القرب يوم أحد)[3].

٤ ـ **عائشة (٩ق.هـ ـ ٥٨هـ) وأم سليم** ﷺ: كانتا تسقيان الجرحى بعد تراجع المسلمين في أحد[4]. ويذكر صاحب كتاب (السيرة النبوية ـ علي محمد الصلالي)، عن الصحابي الجليل كعب بن مالك ﷺ: «رأيت أم سليم بنت ملحان وعائشة على ظهورهما القرب، يحملانها يوم أحد، وكانت حمنة بنت جحش تسقي العطشى وتداوي الجرحى، وكانت أم أيمن تسقي الجرحى»[5]. وفي رواية أخرى للبخاري: «تداوي الجرحى، وتردّ القتلى إلى المدينة»[6].

٥ ـ **فاطمة** ﷺ **بنت رسول الله** ﷺ **(١٨ق.هـ ـ ١١هـ)**: تغسله، وعلي ﷺ يسكب الماء بالمجن، فلما رأت فاطمة أن

(١) السيرة النبوية الصحيحة /٣٩٠، نقلاً عن مجمع الزوائد ٢٩٢/٩.

(٢) السيرة النبوية الصحيحة /٣٩٠، عن فتح الباري ٣٦٦/٧.

(٣) السيرة النبوية الصحيحة /٨١٨، عن البخاري ـ كتاب المغازي، رقم/ ٤٠٧١.

(٤) السيرة النبوية الصحيحة /٣٩٠، عن فتح الباري ٧٨/٦، وشرح النووي على صحيح مسلم ١٨٩/١٢.

(٥) السيرة النبوية الصحيحة /٨١٨، عن المغازي للواقدي ٢٤٩/١.

(٦) السيرة النبوية الصحيحة /٨١٨، عن البخاري ـ فتح الباري لابن حجر ٩٢/٦ عن حديث رقم ٢٨٨٠.

الماء لا يزيد الدم إلا كثرة، أخذت قطعة من حصير فأحرقتها وألصقتها، فاستمسك الدم[1].

٦ ـ صفية بنت عبدالمطلب (٥٣ق.هـ ـ ٢٠هـ): كانت مع أزواج رسول الله ﷺ في حصن حسان بن ثابت، وكان من أحصن آكام المدينة، فمرّ رجل يهودي، فجعل يطيف بالحصن، فقالت صفية: يا حسّان أن هذا اليهودي كما ترى يطيف بالحصن، وإني والله ما آمنه أن يدخل على عوراتنا... فأنزل إليه فاقتله، فاعتذر، فأخذت عموداً، ثم نزلت من الحصن إلى ذلك اليهودي فضربته بالعمود فقتلته، ثم رجعت إلى الحصن... ثم شهدت غزوة خيبر[2].

٧ ـ المرأة الدينارية[3]: أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ في أحد، فلما نعوا لها قالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيراً يا أم فلانة، وهو بحمد الله كما تحبين. قالت: أرونيه حتى أنظر إليه، فأشير لها إليه، حتى إذا رأته قالت: «كل مصيبة بعدك جلل، يا رسول الله» ـ تريد: صغيرة[4].

وهكذا فمن لم تسهم بالجهاد، تدفع رجالها إليه، وتتبعهم

(١) السيرة النبوية الصحيحة/ ٨١٨، عن البخاري ـ كتاب المغازي، رقم ٤٠٧٥.

(٢) صور من حياة الصحابة/ الباشا/ ٣٨٤ ـ ٣٩١ ـ باختصار عن (طبقات ابن سعد) وأعلام النساء/ كحالة/ ٣٤١ ـ ٣٤٥، عن عديد من المصادر.

(٣) السيرة النبوية الصحيحة/ ٨٢٢، عن البداية والنهاية ٤/ ٤٨.

(٤) القادسية: بينها وبين الكوفة خمسة عشر فرسخاً.

بمشاعرها، حتى إذا استشهدوا جميعاً، تحمد الله على شهادتهم، وتحمد الله على سلامة النبي القائد، ولا ترسل عليهم دمعة حزن، إذ هم ضيوف الرحمن في جنته في ظلال عرشه!

٨ ـ أم حكيم بنت الحارث المخزومية[١] رضي الله عنها : شهدت وقعة اليرموك، وأبلت فيها بلاءً حسناً، فقاتلت أشدّ القتال في وقعة مرج الصفر، فخرجت بعمود الفسطاط، فقتلت سبعة من الروم.

٩ ـ خولة بنت الأزور[٢] رضي الله عنها : توفيت (٣٥هـ ـ ٦٥٥م) أواخر خلافة عثمان ﷺ نذكر خلاصة لقصة معركة خاضتها، وما زالت وستبقى حتى قيام الساعة أعجوبة الصناديد من الرجال، بله النساء.

«شاهدها خالد بن الوليد ﷺ فارساً طويلاً، لا يبين من إلا الحدق، وقد سبق أمام الناس كأنه نار، . . أتبعه خالد وجنود معه، ثم خرج الفارس ملطخاً بالدماء وقد فتك بالروم، ثم اخترقه غير مكترث، فأتبعه خالد مع جمهرة من جيشه ورآه كأنه شرارة، وكلما لحقت به الروم لوى عليهم وجندل منهم، وهو مخضب بدمائه فصاح به خالد ومن معه، أن اكشف عن لثامك،

---

(١) أعلام النساء، ج١/٢٣٧ ـ ٢٣٨ عن (تاريخ الطبري. . أسد الغابة لابن الأثير، والموطأ، الاستيعاب لابن عبدالبر، تاريخ ابن عساكر، طبقات ابن سعد، سيرة ابن هشام، فتوح البلدان للبلاذري)، وصفة الصفوة لابن الجوزي /٣١٤.

(٢) موسوعة الأدب الإسلامي وتاريخه في عصوره ـ صدر الإسلام /٣٦٨ ـ ٣٧٠، والأعلام ٣٢٥/٢ عن الدر المنثور.

واسمك، فلم يجبهم، ثم قال: أنا خولة بنت الأزور، وقد أتاني الساعي أن ضراراً أخي أسير... فحملت خولة من جديد والمسلمون معه، وانتهت المعركة بفوز المسلمين. فأقبلت خولة تسأل عن أخيها: «يا ابن أمي ليت شعري في أي بيداء طرحوك، أم بأي سنان طعنوك، أم بالحسام قتلوك! يا أخي أختك لك الفداء، ولو أني أراك أنقذتك من أيدي الأعداء، ليت شعري أترى أني أراك بعدها أبداً، فقد تركت يا ابن أمي في قلب أختك جمرة لا يخمد لهيبها، ليت شعري لحقتَ بأبيك المقتول بين يدي النبي، فعليك السلام إلى يوم اللقاء».

فبكى الناس من قولها، وبكى خالد، ثم إن كراديس الروم رموا رماحهم وسيوفهم من أيديهم، وترجلوا، ونادوا بالأمان. فقبل خالد أمانهم، وسألهم عن (ضرار) قالوا: لعله عاري الجسد الذي قتل منا عدداً عظيماً وفجع قائدنا (وردان) في ولده. فقال خالد: هو ذا، فقالوا: أرسله وردان أسيراً على بغلة، ومع مئة فارس إلى حمص، ليوصله إلى الملك.

فأرسل خالد كوكبة من الفرسان ـ يعرفون المسالك، فتقلدت خولة سلاحها واستأذنت خالداً باللحاق بأخيها.. حتى أدركوه، فكبر المسلمون حين لقوهم وقتلوا حرّاس ضرار، وأنقذوه شاكرين الله سلامته.

ولقد اقتحمت خولة كذلك وقعة (صحور) من أعمال الشام، وكانت أسيرة مع نسوة لدى الروم، فألقت كلمتها الشجاعة فيهم، فاستجابوا للقتال معهم بالأعمدة الخشبية من غير سيوف! فتناولت كل واحدة عموداً من أعمدة الخيام وصِحن

صيحة واحدة وهجمن مجتمعات، فتقدمتهن، وقاتلن قتالاً مروعاً، أنقذت أنفسهن من الأسر، والتحقن بجيش المسلمين[1].

١٠ ـ **الخنساء بنت عمرو بن الحارث**[2] رضي الله عنها: توفيت (٢٤هـ)، أشهر شواعر العرب، وأشعرهن على الاطلاق، وفدت على رسول الله ﷺ مع قومها بني سليم، وأسلمت، فكانت تنشده ﷺ، وهو يقول: **«هيه يا خناس»**، ويومي بيده!

شهدت القادسية هي وأولادها الأربعة سنة ١٦هـ، وتروي قصة استشهادهم تباعاً، هي مفخرة النساء المسلمات في عمر التاريخ، في تشجيعها لهم على الجهاد، وفي الصبر على استشهادهم تباعاً، واحتسابهم في جنة الخلد. **ألقت فيهم أبلغ** كلمة، وحرّضتهم على اقتحام الوغى في أبلغ ما أُثِر عن امرأة في سوح الجهاد:

يا بنيّ! إنكم أسلمْتُم طائعين، وهاجرتم مختارين، والله الذي لا إله إلاّ هو إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأةٍ واحدة؛ ما خُنْتُ أباكم، ولا فضحتُ خالكم، ولا هجَّنْتُ حَسَبَكم، ولا غيّرت نسبكم.

---

(١) أعلام النساء، كحالة ٣١٨/ ـ ٣٢٤، عن (فتوح الشام للواقدي، الدر المنثور، ديوان الخنساء).

(٢) الأعلام ج٨٦/٢، عن شرح النواقذ والمعاهد والشعر والشعراء والدر المنظوم والشريشي، وفي أعلام النساء وحسن الصحابة وخزانة البغدادي وجمر الأنساب، ويقال لها: خناس، وتاريخ الأدب العربي ١٦٤/ ـ ١٦٥، وموسوعة الأدب الإسلامي وتاريخه في عصوره ـ صدر الإسلام/ ٣٦٠ ـ ٣٦٦.

وذكَّرَتهم بآيات الوعد بجزيل الثواب للصابرين في مواطن القتال وقالت لهم: فإن أصبحتم غداً - إن شاء الله - سالمين، فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، فإذا رأيتم الحرب شَمَّرتْ عن ساقها.. فتيمّموا وطِيسَها تظفروا بالغُنم والكرامة في دار الخلد والمقامة.

فلما أضاء لهم الصبحُ باكروا مراكزهم، وباشروا القتال، وأنشأ أولهم يقول:

يا إخوتي إن العجوز الناصحة   قد نصحتنا إذ دعتنا البارحة
مقالة ذات بيان واضحة   فباكروا الحروب الضروس الطاحنة
وإنما تلقون عند الصائحة   من آل ساسان الكلاب النابحة
قد أيقنوا منكم بوقع الجائحة   وأنتم بين حياة صالحة
أو ميتة تورث غُنماً رابحة

وتقدم فقاتل حتى قتل، ثم حمل الثاني وهو يقول:

إن العجوز ذات حزم وجلد   والنظر الأوفق والرأي المسدد
قد أمرتنا بالسداد والرشد   نصيحة منها وبراً بالولد
فباكروا الحرب حماة في العدد   إما لفوز بارد على الكبد
أو ميتة تورثكم عزّ الأبد   في جنة الفردوس والعيش الرغد

فقاتل حتى استشهد، ثم حمل الثالث، وهو يقول:

والله لا نعصي العجوز حرفا   قد أمرتنا حرباً وعطفا
نصحاً وبراً صادقاً ولطفا   فبادروا الحرب الضروس زحفا
حتى تلفوا آل كسرى لفا   أو يكشفوكم عن حماكم كشفا
إن نرى التقصير منكم ضعفا   والقتل فيكم نجدة وزلفى

فقاتل حتى استشهد، ثم حمل الرابع وهو يقول:

لستُ لخنساء ولا للأخرم ولا لعمرو ذي السناء الأقدم
إن لم أرد في الجيش جيش الأعجم ماضٍ على الحول خضم حضرم
إما لفوز عاجل ومغنم أو لوفاة في السبيل الأكرم

فقاتل حتى قتل. فبلغها الخبر، فقالت: «الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته».

ثم كان عمر بن الخطاب ﷺ يعطي الخنساء، أرزاق أولادها الأربعة لكل واحد مئتا درهم حتى قبض[1].

* * *

(١) موسوعة الأدب الإسلامي وتاريخه في عصوره ـ صدر الإسلام ـ المؤلف/ ٣٦٥ ـ ٣٦٦.

❁ المبحث الخامس:
آداب المرأة المسلمة في سلوكها،
تكريماً لها، وتوقيراً وسعادة

المرأة جوهرة نفيسة تصان عما يسيء إلى عرضها وشرفها وعزّتها، وتُحمَى من الذئاب البشرية من أن تُفترَس. وما لم يكن للمرأة المسلمة التزام أدبي في جوهرها وفي أسرتها وفي بيئتها وفي مظهرها، فلا عاصم يعصمها من رجال السوء، بل هي تفسدهم!.

ثم إن هذه الآداب في سلوكها، التي تمارسها في حياتها، إنما هي عبادة موصولة تتعبّد بها ربها، لأنها التزام وتنفيذ لنصوص محكمة تُخضِع لها حياتها في حِلّها وترحالها.

وما أجمل وصف أدب المرأة المسلمة في رحاب الإسلام:

أنا الإسلامُ أدّبني ... وبالإيمان كرّمني
فعشت العمرَ هانئةً ... بعيداً عن لظى الفتن
بإسلامي سَمَتْ روحي ... وصُنتُ بشرعه بدني
كتابُ الله لي نور ... بأصفى الحب يغمرني
فينسيني هوى الدنيا ... وللجنّات يحملني
بربي علقتُ عيني ... فأرقُبهُ ويرقبني
إذا الأهواء نادتني ... حيائي منه يمنعني
أجلّ النفسَ أن تصبو ... لأمر لا يشرّفني!!

ألـيس الله أوجـدنـي لأبـنـي قـادة الـزمـن[1]!!

❁ **ومن هذه الآداب ما يأتي:**

١ ـ **خطر خلوتها بالأجنبي عنها**: إذ الخلوة تسهّل ممارسة الحرام، وترفع المعوقات أمامه، وتضعف قدرتهما على الالتزام بحدود العفة والشرع: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يخلُوَن بامرأة ليس معها ذو محرم، فإن ثالثهما الشيطان**»[2]. والمرأة صاحبة التمكين، لذا قدّم الله تعالى ذكرها قبل الرجل في الزنى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾[3].

أما ادعاء أن الحضارة مكّنت الاثنين من الثقة بنفسيهما، فهذا تكذيب لله ورسوله والواقع والفطرة والعلم، وكذا الادعاء بأنها أختنا أو ابنتنا، وهي غيرتنا وشرفنا، فذلك يدعو إلى حمايتها، لا الخلوة بها! الرجل هو الرجل والأنثى هي الأنثى في عمر التاريخ والغرائز والشهوات والاستعدادات واحدة، والميل الفطري لبعضهما قائم ودائم، يقول رب العزة: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ﴾[4]، وكذا الثقافة والعلم لا يحجبان الفطرة المستديمة، ولكن يمكن التهذيب والتسامي في غير هيمنة الشيطان، وهو ثالثهما، مع عدم ضمان النتائج! ولقد ابتُلِيَ النبي يوسف الصدّيق بالخلوة مع زوجة ملك مصر، ولولا استغاثته بربه لهلك! ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[5].

---

(١) مصطفى عكرمة، تحفة العروس/٤٠٤ ـ ٤٠٥.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده.

(٣) النور: ٢.

(٤) الروم: ٣٠.

(٥) يوسف: ٣٣.

ومِن حذَر الإسلام في مجال الخلوة أن حُرِّم على قريب الزوج الخلوة بزوجته وهو (الحمو) كالأخ وابن الأخ وابن العم، . . . قال نبينا الحكيم محمد ﷺ: «**إياكم والدخول على النساء**». فقال رجل من الأنصار: أفرأيت الحمو؟ فقال ﷺ: «**الحمو الموت**»[1]!.

لذا منعها الإسلام كذلك من السفر وحدها، قال رسول الله ﷺ: «**لا يخلوَنّ رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرَم، ولا تسافر إلا مع ذي محرم**»، فقال له رجل: يا رسول الله، إن امرأتي خرجت حاجّة، وإني اكتتبت في غزوة كذا وكذا. قال ﷺ: «**انطلق فحجّ مع امرأتك**»[2].

٢ ـ **عدم اختلاط المرأة بالرجل إلا لضرورة**: الاختلاط ذريعة يجب سدّها، وتسفر عنه الملابسات الخطرة في البيئات المحافظة، وتحدث الصداقات والمواعيد والخلوة وتستثار العواطف وتتشابك العلاقات التي يتقن كلّ منهما فن النفاق والكذب فيها، إما لمتعة وقتية، وإما لمواعيد زواج مغرية خادعة وأحلام برّاقة لاقتناص الصيد، وذلك في بيئتي التحلل والتحضر، وفي نهاية المطاف المرأة هي الضحية غالباً!.

ولا عبادة في هذا الاختلاط قط، إنما هو الوزر، ونسيان الله على الأقل.

للضرورة أحكامها: سمح للمرأة في الجهاد أن تداوي

(١) متفق عليه.

(٢) أخرجه مسلم.

الجرحى وتسقي الجيش وتعدّ الطعام، كما اشتركت في الجهاد تقاتل، ومن حق النساء أن يشتركن في الدفاع عن الوطن الإسلامي إذا اقتحمه الأعداء ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[1]، ومن حقها أن تخرج للدفاع من غير استئذان زوجها كما ذكرنا سابقاً، إذ هو فرض عين، وقد ورد تفصيل جهادها في المبحث الرابع من هذا الفصل.

ويجوز للمرأة كذلك الخروج للبيع والشراء والتجارة، كما يسمح لها بالخروج في وسائل النقل العامة، مع التزامها بأدب النظرة والحشمة بالملبس وأدب الكلام والحذر من الخلوة، ولها كذلك حضور الحج والعمرة والصلوات الخمس وصلاة الجمعة والعيدين جماعة، ولكن في مكان مستقل عن الرجال أو في مؤخرتهم، وكان ﷺ إذا أنهى صلاته مكث قليلاً ليجيب النساء قبل الرجال، وكان ﷺ إذا فرغ من خطبة العيد للرجال يأتي النساء فيذكّرهن.

٣ ـ **حُرمة التبرج وإظهار جسدها**: الزينة يحبها الرجال والنساء، وللرجال أن يتزينوا حتى في المساجد: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[2]، ولا ضرر في ذلك، أما المرأة فكلها زينة، لذا فإن جسدها كله عورة لأنه مثير للشهوة، إضافة إلى أنها تحب الزينة أكثر من الرجل، ونوعا الزينة: المستترة والظاهرة للمرأة، كلتاهما محرمة على الأجنبي عنها إلا الوجه والكفين، وهو **الحجاب** على رأي ابن عباس، **والنقاب** على رأي ابن

---

(١) التوبة: ٤١.
(٢) الأعراف: ٣١.

مسعود ﷺ، والنص النبوي صريح في الحجاب: «**إن المرأة إذا بلغت الحُلُم لا ينبغي أن يُرى منها غير هذا وهذا** ـ وأشار ﷺ إلى الوجه والكفين»[1]، وذلك شرح قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾[2]، وتقييد إبداء الزينة صريح في كتاب الله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾[3]، ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[4].

٤ ـ **الزي الشرعي**: الذي يغطي سائر الجسد ما عدا الوجه والكفين، فيغطي العنق والصدر: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾[5]، والجيب أعلى الصدر والرقبة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾[6]، والخمار يغطى به الرأس.

---

(١) أخرجه أبو داود والبيهقي، ونصه من عدة طرق.
(٢) النور: ٣١.
(٣) الأحزاب: ٣٣.
(٤) النور: ٣١.
(٥) النور: ٣١.
(٦) الأحزاب: ٥٩.

وليس الحجاب الشرعي عائقاً عن اقتحام المرأة للمجالات التي سمح لها الإسلام في المجتمع، وهذه التيمورية - عائشة، تتباهى به كما تتباهى بعفتها وهمتها:

ما عاقني خجلي من العليا ولا سدَلَ الخمارُ بلمتي ونقابي
بيد العفاف أصون عزّ حجابي وبهمتي أسمو على أترابي

والجلباب الذي يُسدَل على جسم المرأة كله إلى أسفل ساقها، ويديها إلى الكف، ويغطي شعرها، على أن يكون الجلباب فضفاضاً وليس بشفاف، ويوصي ﷺ المرأة كذلك بلباسهن الخاص بهن: **«لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال»**[1]، والحجاب الشرعي زينة وعفة وشرف، وحفاظ عليها:

قل لمن بعد الحجاب أسفرت أبهذا يأمر الغيدَ الشرف؟!
ليست المرأة إلا دُرّةً أيكون الدرّ إلا في الصدَّف؟!

وفي حالة تبذل المرأة وتنكبها هذا الزي الذي يكرمها، تكون عرضة لجذب الرجال إليها، ومضايقتهم لها، فتكون في وزر وغضب رباني، وتنتفي العبادة التي خلقت من أجلها، وتفسد حينئذ الضمائر والبيوت.

٥ - الالتزام بغض النظر وأدب الكلام وأسلوب المشي:

أما أدب النظر، فهو طريق الشيطان إلى القلب في اضطرابه

---

(١) أخرجه البخاري.

وإحداث الوساوس بما يشغل عن السلوك التعبدي السليم فيه: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٣٠ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾[1]، والربط بين البصر وحفظ الفرج إشارة إلى أنه منحدر الزنى: **«يا عليّ لا تُتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى، وليس لك الآخرة»**[2]، إلا نظرة الفجاءة للاثنين فلا حساب عليها، والنظر نظر القلب، لا العين، إذ قد تخون العين من غير قصد من صاحبها: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ۝١٩﴾[3]، و**«النظرة سهم من سهام إبليس، من تركها من مخافتي أبدلته إيماناً يجد حلاوته في قلبه»**[4].

أما نظر الفجاءة فلا حساب عليه: سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجاءة، فقال ﷺ: **«اصرف بصرك»**[5].

وجوّز النبي ﷺ نظر المرأة إلى الرجال فيما ترويه عائشة رضي الله عنها: «رأيت النبي ﷺ يسترني بردائه، وأنا أنظر إلى الحبشة، يلعبون في المسجد»[6].

---

(١) النور: ٣٠، ٣١.
(٢) أخرجه الترمذي وأحمد وأبو داود والدارمي.
(٣) غافر: ١٩.
(٤) أخرجه الحاكم عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ، والطبراني في المعجم الكبير.
(٥) أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي.
(٦) أخرجه البخاري ومسلم.

ومن القصص النادرة في النظر أن وقعت عين الإمام الشافعي ﷺ فجأة على كعب امرأة عند صائغ فشغلته عن حفظه، من دون إرادة منه، فشكا أمره إلى شيخه (وكيع) وصاغ الشكوى وجوابها ببيتين من الشعر:

شكوت إلى وكيعٍ سوءَ حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأنّ العلم نورٌ ... ونورُ الله لا يُهدَى لعاصي

وفي مجال النظر نهى الرسول الحييّ ﷺ الحكيم عن نظر كل من الرجال إلى عورة بعضهم، وكذا النساء، كما نهى أن يفترش كل منهما مع جنسه عاريين في غطاء واحد. فقال ﷺ: **«لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يُفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد، ولا تفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد»**[1]، ولا يفضي: أي: لا يضطجعان متجردين من الملابس تحت ثوب أو غطاء واحد.

وأما أدب الكلام، فمن غير لين ولا ترخيم صوت، بل وقار وحشمة: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾﴾[2].

(أمرهن الله تعالى أن يكون قولهن جزلاً وكلامهن فصلاً، ولا يكون على وجه يحدث في القلب علاقة بما يظهر عليه من اللين، المطمع للسامع، وأخذ عليهن أن يكون قولهن

(١) أخرجه مسلم.
(٢) الأحزاب: ٣٢.

معروفاً[١]. فعليهن التعبد في آداب الكلام، بما يرضي الرب، ولا يرضي الشيطان والنفس الأمارة بالسوء.

وأما أسلوب المشي: فمن غير تمايل أو التفات أو حركات مريبة، وضرب بالرّجل ليُسمعَ قعقعة الخلخال وغيره من الذهب الذي يلبس في أعلى الأقدام: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾[٢]. وكذا سائر أنواع الزينة من ذهب وغيره، قياساً على الخلخال.

وهذا من دقة الإسلام في أحكامه أن المرأة تحسب الحساب لعبادتها حتى في مشيتها، لا تأثم في أسلوب المشي بما يستثير الرجال فتؤثمهم كذلك، فتتحمل إثمين! أثمها وإثمهم.

وأما المصافحة، فلم يصافح ﷺ يد امرأة أجنبية عنه، وكان يصافح الرجال في بيعة القضاء ولا يصافح النساء: «ما مسّ رسول الله يد امرأة قط، إلا أن يأخذ عليها..». ويقول: «**اذهبي فقد بايعتك**»[٣]، وكان ﷺ يبايع المؤمنات المهاجرات بمجرد إقرارهن، وإقرارهن بالهجرة هو نجاح لهنّ في الامتحان، وكان يقول لهن: «**انطلقن فقد بايعتكن**»[٤].

فعلى المسلمة الالتزام بهذه الآداب التي تصونها من ذئاب

---

(١) أحكام القرآن ـ ابن العربي المالكي ١٢٣/، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٧٧/١٤.

(٢) النور: ٣١.

(٣) رواه مسلم وأبو داود وأحمد.

(٤) أخرجه البخاري ومسلم ـ اللؤلؤ والمرجان ٢٥٣/٥.

البشر، وعلى الرجل الالتزام بحديث المصطفى ﷺ: **«عفّوا عن نساء الناس تعفّ نساؤكم، وبرّوا آباءكم تبرّكم أبناؤكم، ومن أتاه أخوه متنصلاً فليقبل ذلك محقاً كان أو مبطلاً، فإن لم يفعل لم يرد على الحوض»**[1].

من هذه الآداب السامية التي ترقى إليها ابنة الإسلام، كان حرياً بها أن تتربع على عروش القلوب تكريماً واحتراماً، لما تحمله من فضيلة وأخلاق وفكر ودين، ولله درّ الشاعر إذ يقول:

ألا يا ابنة الإسلام، يا رفة الندى ويا هبّة الأنسام بالروح والعطر
أطلّي على الدنيا الجديدة بالذي ورثتِ من الأخلاق والدين والفكر
وكوني مثالاً للفضيلة يحتذى وشمساً تضيء الكون بالقيم الغُرّ[2]

ومن الأقاصيص النادرة في مصافحة المرأة المسلمة ما أورده ابن بابويه: (جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: إن أمي لا تدفع يد لامس. قال: **«فاحبسها»**، قال: قد فلعت، قال: **«فامنع عنها من يدخل عليها»**. قال: قد فعلت، قال: **«فقيّدها، فإنك لا تبرّها بشيء أفضل من أن تمنعها من محارم الله ﷻ»**)[3]!.

وهذا الحديث يشير إلى أن يد الرجل تهيج الجنس للمرأة حين مصافحتها، في حين أن المتعارف عليه أن يد المرأة فقط

(١) أخرجه الحاكم وقال: صحيح الإسناد.
(٢) تحفة العروس/ ٤٠، ولم يذكر قائلها.
(٣) تحفة العروس/ ٦٥، ولم يذكر قائلها.

هي المثيرة للرجل حين اللمس، والواقع أن المصافحة تضرّ الرجل والمرأة معاً.

وأما العطر، فهو خاص بينها وبين زوجها، وقد استهجنه ﷺ للمرأة المسلمة، مع غير زوجها لأنه يثير من يشمّ عطرها: «**أيّما امرأة استعطرت فمرّت على قوم ليجدوا من ريحها، فهي زانية**»[١]، وليس المقصود أنها زانية حقيقة، ولكن العطر الذي يفوح منها يثير الجنس لدى الرجل الغريب، ويحمله على الشكوك والريبة بها، ولا يليق بالمرأة الشريفة أن تثير الرجل الأجنبي عليها جنسياً، ولا أن تضع نفسها موضع الريبة.

ولو أن النساء التزمن بهذه الآداب السامية، لفضّلن على الرجال:

فلو كان النساء كمثل هذي لفضلت النساء على الرجال
وما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال[٢]

---

(١) أخرجه النسائي وأحمد وابن خزيمة وابن حبان والدارمي، وعبد بن حُميد في مسنده.

(٢) المتنبي.

الفصل الثالث

أهداف الزواج والتهيؤ له عبادة وسعادة

الفصل الثالث

أهداف الزواج والتهيؤ له عبادة وسعادة

❁ **توطئة:**

هذا الفصل أهم الفصول في الكتاب، إذ يضع أهداف الزواج بين عيني القارىء الكريم، فإذا عُرفت الأهداف، وتمّ الاقتناع بها، وضعت الخطط للتنفيذ، وانعقدت النية عليه.

إن الزواج تكريم الله للإنسان، وفيه سعادتان ـ رضوان الله تحقق السعادتين في الدارين، والاستقرار النفسي في سعادة الدنيا بالجنس وبالذرية ـ وجودها وتنشئتها، إضافة إلى أنه نصف الدين! وفيه صيانة للمجتمع من التحلل والفساد، وإفادة من الوقت أن يضيع بالفساد، وبالأماني!.

وفي تحقيق أهداف الزواج عبادة وسعادة، وقبل التحقيق انعقاد النية، وهي عبادة وتفاؤل بالخير القادم، ولهذه العزيمة في الزواج خطوات، الخطبة بعد رؤيتها والتحدّث إليها، وحسن الاختيار المفضل بذات الدين، وانتقاؤها من بيئة صالحة والدين صالحين، بسبب أثر البيئة والوراثة فيها، ولا حرج أن يسبق الحبّ الزواج.

وفـي هـذا فـتـوى مـنـه ﷺ: «لـم يُـرَ لـلـمـتـحـابـيـن مـثـل الزواج»[1]، علماً بأن الحب مغروس في فطرتي الزوجين حين اجتماعهما ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[2]، ثـم إن مراسيم الزواج من عقد النكاح، وإعلانه، والدعاء للزوجين، ثم وليمة العرس ودعوة الإخوة والأصحاب إليها، وتيسير المهر المناسب لقدرة الزوج المالية، من غير إرهاق له، كل ذلك يجلب الفرحة للزوجين اللذين يتهيّآن لبناء عش الزوجية، بما تملأ نفسيهما السعادة والدعاء من المولى، بإتمام النعمة بالحياة الكريمة المباركة بينهما.

* * *

(١) أخرجه ابن ماجة والحاكم والبيهقي والطبراني في المعجم الأوسط، وابن أبي شيبة، وأبو يعلى مرسلاً وموصولاً.

(٢) الروم: ٢١.

❁ المبحث الأول:
أهداف الزواج الشرعي تحقيقها عبادة وسعادة

للزواج الإسلامي أهداف سامية، تبني كيان الفرد والأسرة والمجتمع والأمة والدولة وحضارتها وواقعها ومستقبلها، لذا فهو أخطر عامل تعبّدي في البناء، حين يضع الزوجان نصب أعينهما تحقيق أهدافه. وهو أخطر عامل في الهدم والسقوط حين يغفلون عن الأهداف التي وضعها لنا رب العالمين، تكريماً لنا وإسعاداً وقوة، أو حين يتخذون لهم أهدافاً غيرها مما نراه في الحضارة الحديثة، والله تعالى يقول: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1]، أي: لا هدى إلا هدى الله ربّ العالمين.

❁ أولاً: تكريم الله للإنسان بالزواج إسعادٌ له:

ذلك أن اجتماع الذكر والأنثى في الزواج لم يكن لمجرد الوقاع الجنسي كالحيوان، ولم يُترك للهوى والعاطفة الجامحة، وإنما شرّع الإسلام لهما نظاماً - المتعة الجنسية فيه عبادة: «في بُضع أحدكم أجر»، قالوا: أيأتي أحدنا شهوته وله أجر؟! قال ﷺ: «نعم، أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وِزر؟ كذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر»[2]، إضافة إلى الحقوق والواجبات لكل من الزوجين في تعاملهما مع بعضهما في هذا النظام، وإضافة إلى نظام التنشئة والتربية للأطفال، ونظام تعامل الأولاد مع الوالدين ومع الجد، ثم مع الأقارب، فهو نظام

(١) الأنعام: ٧١.
(٢) أخرجه مسلم والنسائي.

متكامل من الله تعالى في تكريم كل فرد من أفراد الأسرة ـ من خلال التشريع المحكم في الزواج الذي فتح باب العبادة لكل من الأب والأم والأولاد والأحفاد، ولا تكريم لنا أكثر من التزامنا بهدي الله ونظامه الذي نتعبده من خلال تنفيذنا له، والعيش برحابه، ولا سعادة إلا بالعمل به.

ومن كرم الله تعالى للمتزوج أن يعينه وييسر له، إن قصد به اطمئنان نفسه وكفها عن الحرام: **«ثلاثة حق على الله عونهم: المكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف، والمجاهد في سبيل الله»**[1].

❁ ثانياً: التماس السعادة والاستقرار النفسي للزوجين:

حياة الرجل بعيداً عن المرأة ـ التي هي جزء منه ـ شقاء له، وكذا المرأة: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[2]، وما خُلقا كذلك إلا ليجتمعا: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[3]، ونظام الحياة لا يقوم إلا على اجتماع الزوجين فتزول عنهما وحشة الحياة وجفوتها.

لذا فإن المرأة الصالحة جعلها الرسول ﷺ مصدر سعادة الرجل، بل أولى أسبابها، يقول المصطفى ﷺ: **«من سعادة ابن آدم ثلاثة، ومن شقاوة ابن آدم ثلاثة: من سعادة ابن آدم: المرأة الصالحة، والمسكن الصالح، والمركب الصالح، ومن شقاوة ابن**

---

(١) أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه وابن الجارود في المنتقى والحاكم.

(٢) الذاريات: ٤٩.

(٣) الروم: ٣١.

آدم: **المرأة السوء، والمسكن السوء، والمركب السوء»**[١].

بل هي خير ما في الدنيا، كما يقول ﷺ: **«الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة»**[٢].

وفي حديث آخر يجعل ﷺ السعادة أربع: **«أربع من السعادة، المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهني»**[٣].

وحينما تكون الزوجة الصالحة معه في بيت واحد، هو سعيد بجمالها الشكلي والمعنوي والتعبدي وهو سعيد برفقتها: هي سكن له، وحرث له، وهي شريكة حياته، وربة بيته، وأمّ أولاده، ومهوى فؤاده، وموضع سره ونجواه! كيف لا يسعد بها، حين تكون كذلك، وكما يريد منها الإسلام أيضاً، فتحقق بتعبدها السلوكي مع زوجها سعادته الوارفة الظلال، ليكون استقراره وجنته بيته: **«وليسعك بيتك»**[٤]، كما في حديث النبي الكريم لمن يسعد فيه، كما تربح بإسعاده الأجر العميم.

ويصف النبي الحكيم طبيعة هذه السعادة التي تسبغها المرأة على زوجها بقوله ﷺ: **«ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله ﷻ،**

---

(١) أخرجه أحمد والحاكم وقال: (صحيح الإسناد)، وقال البيهقي في المجمع عن رواية أحمد بأن رجالها رجال الصحيح، وأخرجه أبو داود والطيالسي والطبراني في الأوسط والكبير.

(٢) أخرجه مسلم.

(٣) أخرجه ابن حبان.

(٤) أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن، وأحمد.

خيراً له من زوجة صالحة: إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرّته وإن أقسم عليها أبرّته، وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله»[١].

❁ ثالثاً: الزواج إكمال الدين وسعادة للزوجين:

لمقام الزواج الكريم عند رسول الله ﷺ أن اعتبره نصف الدين: «**من تزوج فقد استكمل نصف الإيمان، فليتق الله في النصف الباقي**»[٢]، ويوضح المصطفى ﷺ نصف الدين هذا بالمرأة الصالحة، وليس مطلق زواج: «**من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه، فليتق الله في الشطر الباقي**»[٣]، فجعل النبي الحكيم شطر الدين الحياة الزوجية، والشطر الباقي الحياة كلها! أية نعمة تعبدية للزوجة بين يدي الرجل الذي يتعبد الله تعالى بها، وأي مقام لها عنده! هي نصف دينه من خلال التعامل معها!!، لذا فإن المصطفى ﷺ، أعلنها مدوية في مسمع الزمن للشباب: «**يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغضّ للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء**»[٤].

---

(١) أخرجه ابن ماجة والطبراني في الكبير.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان.

(٣) أخرجه الحاكم قال: هذا حديث صحيح الإسناد، والطبراني في الأوسط، والبيهقي في شعب الإيمان، وضعف سنده الحافظ ابن حجر في فتح الباري.

(٤) متفق عليه ـ وهذا النص أمر ملزم بالزواج للمستطيع، عبّر عنها الحديث (بالباءة)، وهي: القدرة على المؤونة والنفقة، والقدرة الجنسية! ـ تحفة العروس /٣٣ ـ ٣٤ ـ الهامش.

هذا وإن الزوجة ضيفة العمر عند زوجها، وفي الأثر: (الضيف أمير على أهل الدار)، فهي الأميرة العمر عنده، وأمارتها إتقان تعبدها بمعاملة زوجها المعاملة التي يرتضيها ربها، وعليها أن تعلم أن رضى زوجها وضعها في مرتبة الإمارة، فليكن شعرها أبداً في سلوكها: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[1].

ثم إن الزوجة هي التي تعفه عن الانحراف إلى غيرها، بسبب الإيمان، وبسبب اكتفائه بها عن غيرها: **«إذا رأى أحدكم امرأة حسنة وأعجبته، فليأت أهله، فإن البضع واحد، ومعها مثل الذي معها»**[2]، وإن قوله ﷺ: **«ومعها مثل الذي معها»**، تورية مؤدبة، وهي حقيقة علمية وواقعية، ذلك أن أوصاف (الرّحم) من الزاوية العلمية المحضة هي واحدة بخصائصها كذلك، لدى جميع الأرحام في جنس النساء!.

= أما القدرة على المؤونة، فكانت في أول الإسلام، أما حين تغتني الدولة، فعليها إقراض المتزوجين ـ حقاً لهم على الدولة ـ والاستدانة لتأمين المهر ونفقات الزوج، والدولة كفيلة بتسديد دينه من سهم الغارمين (أي المدينين) من سهام الزكاة، كما حدث لعمر بن عبدالعزيز في حكمه إذ زوج جميع العزاب في الدولة ـ المصدر السابق /٣٤ ـ الهامش. فلم تبق إلا القدرة الجنسية التي هي بعمر الرشد الذي قرره الإسلام (١٥) سنة.

«وقد فسر الإمام ابن القيم ﷺ (الباءة) في تعليقه على هذا الحديث: (فُسّر الباءة بالوطء، وفسّر بمؤن النكاح» ـ المصدر السابق /٣٤ ـ ٣٦ ـ الهامش.

(١) التوبة: ٧٢.

(٢) أخرجه ابن حبان والترمذي وأبو داود وابن أبي شيبة في المصنف، وأحمد بمعناه، وهذا اللفظ الخطيب في تاريخ بغداد.

ثم إن مشهد المرأة يغري، وهي سلاح الشيطان، لذا فإنها فتنة ما بعدها من فتنة: **«ما تركت بعدي فتنة أضرّ على الرجال من النساء»**[1]!.

لذا فإن الزوجة درع وقائي من مفاتن النساء وإغرائهن: **«إن المرأة تقبل في صورة شيطان، وتدبر في صورة شيطان، فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله، فإن ذلك يرُدّ ما في نفسه»**[2].

ولفائدة الزواج للأعزب، وعدم شرود نفسه إلى الغريزة عن الصلة الوثيقة بالله في العبادة، بل في سائر أحواله، قال ابن عباس ﷺ: «تزوجوا فإن يوماً مع التزوج خير من عبادة كذا عام»، لذا قال ابن مسعود، وهو مطعون: «زوجوني، فإني أكره أن ألقى الله عازباً»[3].

هذا وإن الإمام أحمد بن حنبل ﷺ تزوج في اليوم الثاني لوفاة أم ولده عبدالله، وقال: أكره أن أبيت عزباً[4].

❁ رابعاً: الزواج بإشباع الغريزة الجنسية بالحلال وهو بهذا عبادة وسعادة:

إن هذه الغريزة تضايق الشاب منذ احتلامه، وهي ظاهرة غريبة تؤنسه وتقلقه، حين التفكير بها ولا متنفس لها، فهو إما سيكبح جماحها بالصيام، وإما بالتسامي والتشاغل عنها بالعبادة، ولكنها أقوى من ذلك، وإما بالعادة السرية، وهي مذمومة كما في

---

(١) أخرجه مسلم والترمذي والنسائي في السنن الكبرى، وابن حبان.

(٢) أخرجه مسلم.

(٣) تاج العروس ـ هامش /٤.

(٤) تاج العروس ـ هامش /٤.

الأثر: (الناكح يده ملعون)، وهو ليس بحديث، إضافة إلى أضرارها النفسية والجسدية.

لذا فإن الزواج إشباع للغريزة، بما يسكّن من حدّة الرجل واضطرابه، وهو: (أغضّ للبصر وأحسن للفرج)[1].

سئل الإمام مالك بن أنس ﷺ عن الجِماع فقال: (هو نور وجهك، ومخّ ساقك، فأقلل منه أو أكثر)[2].

والزوج يقضي حاجته مع زوجته كلمّا عَنّ له ذلك، ولكن الأفضل أن لا يكثر منه حرصاً على صحته وشبابه، وهذا رأي الإمام الشافعي ﷺ:

ثلاث هُنَّ مهلكة الأنام وداعية الصحاح إلى السَّقام
دوام مُدامة[3]، ودوام وَطء[4] وإدخال الطعام على الطعام[5]

ويؤكد هذا المعنى غيره:

واحفظ منيّك، ما استطعت، فإنه ماءُ الحياة، يصَبّ في الأرحام[6]

غير أن الفروق الفردية تلعب دورها في هذا المجال، لذا كانت من أسباب التعدد.

وحين يكون الإشباع لهذه الغريزة يشعر الرجل بالاكتفاء

---

(١) أخرجه الجماعة.
(٢) موسوعة الأدب الإسلامي وتاريخه ـ العصر العباسي ـ الإمام مالك/ ١٤١، للمؤلف.
(٣) الخمر.
(٤) الجماع.
(٥) موسوعة رياض الشعر الإسلامي الحكمي ـ المؤلف.
(٦) تحفة العروس/ ١٢٣.

الذاتي، ويصدّه ذلك عن النظر أو البحث عن امرأة أخرى، بما يحفظ دينه وأسرته من العبث والحرام، فيستحيل إشباع غريزته بهذه النية إلى عبادة!

كذلك فإن إشباع هذه الغريزة للزوجة، يترك نفس الآثار فيها كما للزوج، بل قد تكون الآثار في استقرار نفسها وفي اطمئنانها إلى إيمانها وإلى شكر ربها أكثر من زوجها، بأسباب أخرى إلى جوار ذلك، وهي استشعارها بأنوثتها كاملة مع زوجها، وفرحة زوجها بها، وطمعها بأولاد من خلال هذا الزواج، لتكون أمّاً وسيّدة أسرة وربّة بيت، وتباهي بكل ذلك غيرها بهذه النعمة - نعمة الزواج السعيد الذي تتعبد ربها به، ليست مباهاة مفاخرة واستعلاء، إنما هي مباهاة تقوى وعبادة! ورضىً عن زوجها، وحمداً لله وشكراً له، وسعادة تملأ نفسها المطمئنة برضى ربها ورضى زوجها.

❁ خامساً: الزواج يفتح أبواب العبادة من خلال النسل وكثرته، وينشر جوّ السعادة في الأسرة:

فرحة الوالدين بأولادهما من صلبهما غريزة فطرية لدى كل والد ووالدة، إذ يحمل الطفل صفاتهما، ويحمل اسميهما، ويشعر الاثنان أنه امتداد لعمرهما فيه، وهو أعز عليهما من أرواحهما، لذا فإن نقاء النسل من والديه مفخرة لهما.

والإسلام يشجع على إنجاب أولاد الحلال، ويعاقب الأم إن زنت بالرجم، ويصون الأنساب من الاختلاط، بعيداً عن أولاد السفاح والسمعة الفاضحة، وكذا عقاب الأب.

ثم إن كثرة النسل - من خلال الزواج الشرعي - نعمة كبرى

للأبوين، وقوة للدولة وعزّ للإسلام، وفرحة لمحمد ﷺ يباهي بهم الأمم يوم القيامة: «**تناكحوا تكثَّروا، فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة**»[1]. وكان الفاروق ﷺ يقول: (إني لأتزوج المرأة، وما لي فيها حاجة، وأطؤها وما أشتهيها، قيل له: وما يحملك على ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: حتى يخرج الله مني من يكاثر به النبي ﷺ النبيين يوم القيامة، وإني سمعته ﷺ يقول: «**عليكم بالأبكار، فإنهن أعذب أفواهاً، وأحسن أخلاقاً، وأنتق أرحاماً وإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة**»)[2].

❀ سادساً: تنشئة الأولاد في الزواج عبادة! ونعمة كريمة:

«الطفل أعزّ رصيد إنساني، وأغلى ذخيرة على وجه هذه الأرض. وإن أول ما أثبتته تجربة المحاضن أن الطفل في العامين الأولين من عمره يحتاج حاجة نفسية إلى الاستقلال بوالديه له خاصة، وبخاصة الاستقلال بأم لا يشاركه فيها طفل آخر، وفيما بعد هذه السن يحتاج حاجة فطرية إلى الشعور بأن له أباً وأماً مميزين ينسب إليهما.

أما الأمر الأول فمتعذر في المحاضن، وأما الأمر الثاني

(١) أخرجه عبدالرزاق بإسناد ضعيف بهذا اللفظ، وأخرجه ابن ماجه بلفظ: «**انكحوا، فإني مكاثر بكم**»، وإسناده ضعيف، قاله البوصيري في مفتاح الزجاجة، وأخرجه الطبراني في الأوسط بلفظ: «**تزوجوا، فإني مكاثر بكم الأمم**»، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: فيه موسى بن عبيدة، وهو ضعيف.

(٢) تفسير الجلالين/ ٣٣٤.

فمتعذر في غير نظام الأسرة. وأي طفل يفقد أيهما، ينشأ منحرفاً شاذاً مريضاً مرضاً نفسياً على نحو من الأنحاء»[١].

والأولاد في حضن أمهم السنوات السبع الأولى للبنين، والتسع الأولى للبنات، تصاغ فيه نواة الشخصية في هذا العمر:

وينفع الأدب الأحداث في صِغَرِ ... وليس ينفع عند الشيبة الأدبُ
إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ... ولن يلين، إذا قومتها الخشب

وقال آخر:

أراني أنسى ما تعلمتُ في الكِبَرْ ... ولستُ بناسٍ ما تعلمتُ في الصِّغَر
وما العلم إلا بالتعلُّم في الصِّبا ... وما الحلم إلا بالتحلُّم في الكِبَر
ولو فُلِقَ القلبُ المعلَّم في الصِّبا ... لأصبح فيه العلم كالنقش على الحجر
وما العلم بعد الشيب إلا تعسّفٌ ... إذا كَلَّ قلب المرء والسمعُ والبصر
وما المرء إلا اثنان: عقل ومنطق ... فمَنْ فاته هذا وهذا فقد دَمَر

وإن هذه التنشئة الإسلامية تتناول جميع جوانب الحياة الإيمانية والعقلية والخلقية والاجتماعية والنفسية والجسمية، وهكذا تكون التربية تربية متوازنة شاملة، لتصوغ الشخصية الإسلامية التي تمثل القرآن يمشي على قدمين! وإن هذه التنشئة هي أسمى منازل العبادة.

وإن التربية للأولاد وخدمة الزوج هي أعلى منازل العبادة، بل هي بالنسبة للمرأة تعدل جهاد الرجال في الحروب.

جاءت امرأة: (زينب)، وكانت تلقب بخطيبة النساء إلى

---

(١) تفسير الظلال /٢٣٦.

رسول الله ﷺ، فقالت: أنا وافدة النساء إليك، هذا الجهاد كتبه الله على الرجال، فإن أُصيبوا أثيبوا (أُجِروا). وإن قُتلوا كانوا أحياء عند ربهم يرزقون، ونحن معاشر النساء نقوم عليهم!! فما لنا من ذلك الأجر؟ فقال ﷺ: **«أبلغي مَنْ لقيت من النساء أن طاعة الزوج واعترافاً بحقه يعدل ذلك** ـ أي: يعدل أجر المجاهدين في سبيل الله ـ **وقليل منكن من يفعله»**[١].

❁ سابعاً: صيانة المجتمع من التحلل والفساد:

المجتمع الإسلامي مجتمع فضيلة وعفة، تُعنَى الأسر بتربية الأولاد ليكونوا ملتزمين طيّعين لربهم، أهلاً لأن يظلهم الله يوم القيامة، يوم لا ظِلّ إلاّ ظله، قال الرسول المربي ﷺ: **«سبعة يظلهم الله يوم القيامة في ظل عرشه، يوم لا ظِلّ إلا ظله،... شاب نشأ في طاعة الله،...»**[٢].

وحين يسد الإسلام منافذ الفساد للأعزب بالجلد مئة جلدة، والمحصن بالرجم حتى الموت إذا زانيا، يفتح منافذ الزواج، ويلزم الآباء بمساعدة أبنائهم، كما يلزم الدولة المسلمة بتزويجهم من أموال الزكاة إن عجزوا، كما فعل عمر بن عبدالعزيز ﷺ، ولم يبق أعزب شاب إلا تزوج فيما بين الصين والهند والمحيطين الهندي والأطلسي[٣]، وتوسع الإسلام بحرية الزواج بالتعدد، فلم

---

(١) أخرجه البزار والطبراني وعبدالرزاق، وقال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد، وفيه رشد بن بني كريب، وهو ضعيف.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم.

(٣) وخلاصة توزيع الإمام الصالح عمر بن عبدالعزيز لأموال الزكاة في خلافته كما يلي: =

= أصدر الخليفة أوامره بتوزيع ما جمع من أموال الزكاة على فقراء المسلمين، فكان الجواب أن ليس في البلاد فقير مسلم يأخذها، إذ قد اغتنوا جميعاً بها، فأصدر أمره الثاني بتوزيعها على فقراء اليهود والنصارى، فوزعوها، وفاض فيض، فأصدر أمره الثالث بتسديد الديون على الغارمين، فسدّدوها بالزكاة عنهم وفاض فيض، فأصدر أمره الرابع بعتق رقاب العبيد والإماء، فحرّروا بها في أرجاء الدولة، وفاض فيض، فأصدر أمره الخامس بتزويج الشباب غير القادر على الزواج، فزوّجوا بها، وفاض فيض، لقد أغنى عمر الناس! فقال في المال المتبقي منها: ردوه إلى بيت المال، أي خزانة الدولة.

أما تزويج الشباب، فقد ورد تفصيله في كتاب (تحفة العروس) تعليقاً على الحديث الشريف: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغضّ للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء». يقول صاحب التحفة في هامش ص٣٤: هذا ولا شك كان في أول الإسلام، أما حينما تغنى الدولة، فإن لكل مسلم الحق في الزواج والاستدانة لتأمين المهر ونفقات الزواج الأخرى، والدولة كفيلة بتسديد دينه من سهم الغارمين (أي المدنيين)، من سهام الزكاة. ويضيف: وإلى القارىء ما يثبت ما ذهبت إليه: جاء في كتاب سيرة عمر بن عبدالعزيز ﷺ لابن عبدالحكم: طلبَ ابن لعمر بن عبدالعزيز إلى أبيه أن يزوّجه، وأن يتصدّق عليه من بيت المال (أي يدفع له المهر)، وكان لابنه ذلك امرأة، فغضب لذلك عمر، وكتب إليه: لقد أتاني كتابك تسألني أن أجمع لك بين الضرائر من بيت مال المسلمين؟ وأبناء المهاجرين لا يجد أحدهم امرأة يستغني بها، فلا أعرف ما كتبت كمثيل هذا؟ ثم كتب إليه أن أنظر إلى ما قِبلك من نحاسنا ومتاعنا، فبعه، واستعن بثمنه على ما بدا لك (ص١٢٥ طبعة عبيد) فالخليفة لم يستغرب طلب ابنه مهراً من بيت المال، لكن آثر عليه زواج أبناء المهاجرين.

وكتب عمر بن عبدالعزيز إلى عُمّاله: أن اقضوا على الغارمين... فكتبوا إليه: إنا نجد الرجل له المسكن، والخادم، وله الفرس، وله الأثاث في =

يبق لأحد حجة في الزنى، بل ولا يفكّر به، ولا يقربه لعصمة التقوى والزواج والتعدد، ومنع الاختلاط الماجن، وفرض الحجاب الشرعي، فكان للمرأة حرمة ووقار واحترام، فنَظُف المجتمع المسلم من الفساد الجنسي الذي يعصف بالعالم اليوم.

هذا هو فضل الزواج العفّ الذي صان المجتمع من التحلل، وجمعه على التقوى في التعامل مع أخطر غريزة في الإنسان: (الجنس).

في حين أن واقع الحضارة الغربية في عمر (الشباب - Teen Ages من (١٢ - ١٨ سنة) وهو عمر السفاح المطلق المفتوح لجميع الذكور والإناث، من غير حرج، والدولة تحمي ذلك، بحجة (حقوق الإنسان)! والذي يقاوم ابنته أو ابنه يعاقب بالسجن! حتى تفسّخت الأسر وانتشرت الأمراض الجنسية التي كانت تقضي سابقاً على عشرات الألوف سنوياً في فرنسا وحدها، وفي العالم مئات الألوف سنوياً، قبل ظهور الأدوية لها بإحصائيات رسمية في مطلع القرن العشرين[1]، أما حين ظهر مرض (الإيدز) عام ١٩٦٨، واستشرى في أواخر القرن العشرين

= بيته! فكتب عمر: لا بد للرجل من المسلمين من مسكن يأوي إليه رأسه، وخادم يكفيه مهنته، وفرس يجاهد عليه عدوه (ولعل اليوم لا بد له من سيارة، إذا كانت من إنتاج إسلامي)، وأثاث في بيته - أي له ولزوجه وأولاده، ومع ذلك فهو غارم، فاقضوا عنه ما عليه من دين (ص١٦٤) من المصدر السابق.

(١) كان يموت بالزهري كل سنة في فرنسا وحدها ٣٠,٠٠٠، وذلك قبل اكتشاف أدويته، تفسير الظلال /٦٣٣.

ليعمّ حوالي ٥٠ مليون مصاب الآن في العالم حتى نهاية ٢٠٠٤م[1]، فلا علاج لهم جميعاً، وأكثرهم بانتظار الموت المحقق!! وقد مات أكثر من (٣٠) مليون منذ ظهوره قبل ثلث قرن، حتى الآن، تقريباً.

---

(١) علماً بأن إحصائية منظمة الصحة العالمية عام ٢٠٠٠م ذكرت إحصائية للمصابين بهذا المرض (٣٣,٦) مليون، نصفهم نساء، وتفصيلها كما يأتي:

أوربا الشرقية ووسط آسيا: ٧٠٠,٠٠٠.

شرق آسيا والمحيط الهادي: ٦٤٠,٠٠٠.

جنوب آسيا وجنوبها الشرقي: ٥,٨٠٠,٠٠٠.

أستراليا: ١٥,٠٠٠.

أوربا الغربية: ٥٤٠,٠٠٠.

شمال أفريقيا والشرق الأدنى: ٤٠٠,٠٠٠.

أفريقيا ـ جنوب الصحراء الكبرى: ٢٥,٣٠٠,٠٠٠.

أميركا الشمالية: ٩٢٠,٠٠٠.

منطقة الكاريبي: ٣٩٠,٠٠٠.

أميركا اللاتينية: ١,٤٠٠,٠٠٠.

وتذكر الإحصائية أن خمسة ملايين حالة جديدة مصابة بمرض الإيدز، سُجِّلت في عام واحد ١٩٩٩م. فإذا احتسبنا زيادة المرضى خمسة ملايين على الأقل كل عام، فإن أعداد المصابين اليوم تتجاوز الخمسين مليوناً، بل الستين! ٦٠٪ في القارة الإفريقية لا سيما ج،ج ق القارة. وتذكر الإحصائية أن تسع إصابات تقع كل دقيقة، وأن الوفيات بلغت عام ٢٠٠٠م ثلاثة ملايين في مختلف أنحاء العالم. كما تذكر الإحصائية أن سبعة ملايين فلاح ماتوا خلال عشر سنوات ١٩٨٥ ـ ١٩٩٥م في ٢٥ بلداً في أفريقيا وحدها. وإن أكثر البلاد المصابة بالإيدز دول إفريقيا الجنوبية والجنوبية الشرقية ما بين ١٣٪ ـ ٢٦٪ من مجموع السكان ـ عن منظمة الصحة العالمية ـ ص١.

غير أنه اكتشف أخيراً دواء لهذا المرض، ولكنه باهظ الثمن، لا يقدر على شرائه إلا الأغنياء، وأغلب المصابين فقراء في أفريقيا في طريقهم إلى الموت.

* * *

❀ المبحث الثاني:
الاستعداد للزواج

❀ أولاً: نيّة الزواج عبادة وسعادة:

النيّة الصادقة في كل عمل هي بركته، ولا يؤجّر العمل إلا بصدق النيّة: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى**»[1]. ولما كانت جميع الأعمال تباركها النيّة، فالزواج أولى من جميع الأعمال بالبركة.

ولا تكون النية إلا بعد التهيؤ للزواج ماديّاً، لأن إعالة الزوجة والأولاد من مسؤولية الزوج.

والرصيد المالي المتوفر والجاري، يختلف حسب القدرة، وإن الله تعالى ليبارك في الزواج منخفض المهر وقليل النفقات.

وحين حضور النية في القلب والتوكل على الله، يبدأ الرجل بالبحث عن الزوجة الصالحة، فتاة أحلامه، فهو في عبادة موصولة في هذا البحث الذي يعصمه من الحرام.

❀ ثانياً: رؤية الزوجة قبل خطبتها:

لا يكون الزواج في الإسلام أعمى، كما كان في القرون الخالية، وكما هو لم يزل في كثير من البلدان الإسلامية التي ترى ذلك من معالم الشرف والالتزام بالشريعة الإسلامية، وقد

(١) متفق عليه.

أخطؤوا، فإن لم يرها الخاطب إلا ليلة الزفاف وما كانت تعجبه، وقعت الكارثة بينهما، منذ أول لقاء!.

أما النظر لغير الخطبة فمنهيّ عنه: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾[1]، ذلك أن النظر المسموم ينتهي إلى نتائج مفسدة، وقديماً قال الشاعر:

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء!

وما أجمل ما قاله الشاعر في النظر:

كل الحوادث مبدوها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرةٍ فتكت في قلب صاحبها كفتك السهام بلا قوس ولا وتر
والمرء ما دام ذا عين يقلّبها في أعين الغيد موقوف على الخطر
يسر مقلته ما ضر مهجتَه لا مرحباً بسرور عادَ بالضرر[2]!

لما تتركه من أثر في الرجال، لا سيما غير المتزوجين، وما ذلك إلا بسبب النظر! هذه النظرة غير المشروعة: (الأولى لك، والثانية عليك)، أما النظرة المشروعة فهي الأولى، وهي من غير قصد، والنظر الاعتيادي من غير تدقيق ولا إدامة ولا نظرة شهوة، لأن القرآن الكريم يقول: ﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾، ولم يقل ﷻ: يغضوا أبصارهم، فالنظر العارض لا حرج فيه، و(من) للتبعيض، أي لا يطيل النظر ولا يدقق فيه.

---

(١) النور: ٣٠.

(٢) تحفة العروس /٣٠٠، وتربية الأولاد في الإسلام ج٢/٥٠٩، من غير ذكر اسم القائل.

كذلك فإن النظرة المشروعة هي النظرة الفاحصة إلى التي يريد أن يخطبها الخاطب، بل هي أمر نبوي: (انظرها، فإنها أدوم بينكما)[1]، وفي رواية أخرى صحيحة: «**فإنه أحرى أن يؤدم بينكما**»[2].

❁ ثالثاً: اختيار الزوجة عبادة وسعادة:

لهذا الانتقاء أثره في حياة الزوجين لذا أوصى به الإسلام.

إذ أن واقع الزوج ومستقبله وآماله واستقراره وسعادته ونسله، كلها منوطة بالزوجة التي هي فتاة أحلامه، ويحرص على اختيارها، لذا أوصانا المصطفى ﷺ: «**تخيروا لنطفكم، وانكحوا الأكفاء، وانكحوا إليهم**»[3].

لقد وضع الإسلام المواصفات التي يختار الناس بها أزواجهم: «**تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولجمالها ولحسبها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك**»[4].

إن الجمال مرغوب به، وهو نعمة، يقول المصطفى ﷺ: «**إن الله جميل يحب الجمال**»[5]، ولكنه بالنسبة للزوجة لا يُغني

---

(١) أخرجه ابن الجارود في المنتقى.

(٢) أخرجه النسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم، والدارمي، وأحمد، وعند بعضهم بلفظ: (أجدر) محل (أحرى).

(٣) أخرجه ابن ماجه، والدارقطني، والحاكم، وصحح إسناده.

(٤) متفق عليه.

(٥) أخرجه مسلم.

عن الدين ولا عن الخلق: «**لا تزوجوا النساء لحسنهن، فعسى حسنهنّ أن يُرديهنّ، ولا تَزوجوهنّ لأموالهن، فعسى أموالهن أن تُطغيهن، ولكن تَزوجوهنّ على الدين، ولأمة سوداء خرماء ذات دين أفضل**»[1].

ذلك إن الزوجة شريكة حياة، فإن لم تكن صاحبة دين وخلق، فلا تعين زوجها على نوائب الدهر، ولا يتذوق معها طعم العبادة، ولا يُسَرّ برفقتها.

ذكر الإمام ابن الجوزي في كتابه (نوادر الأذكياء) أن شاعراً غضب من امرأته فأنشد:

إن النساء شياطين خُلِقن لنا ... نعوذ بالله من شرّ الشياطين

فأجابته إحدى النساء مع زوجته:

إن النساء رياحين خُلِقن لكم ... وكلكم يشتهي شمّ الرياحين[2]!

ولعلها تأثرت بقصة رملة بنت الزبير، أخت عبدالله بن الزبير. وقع بين زوجها وأخيها خلاف، فأطرقت ولم تتكلم. فقال لها زوجها: **ما لك لا تتكلمين**، فقالت: لا هذا ولا ذاك، ولكن المرأة لم تخلق للدخول بين الرجال، إنما نحن باحين للشمّ والضمّ! فما لنا للدخول بينكم! فقبلها زوجها بين عينيها[3].

---

(١) أخرجه ابن ماجه والبيهقي في الكبرى والبزار وعبد بن حميد.

(٢) تحفة العروس/ هامش ص٣٩.

(٣) تحفة العروس/ هامش ص٣٩.

❁ رابعاً: الفحص الطبي قبل الزواج:

وما كان هذا من قبل، بسبب عدم اكتشاف الأمراض المنتقلة عن طريق الجراثيم التي لا تدركها العيون المجرّدة، وما عرف كثير منها إلا منذ قرن من الزمان، في حين أن الإسلام يوصي بالحذر من الأمراض المعدية ـ قاعدة طبية تخضع للتطور العلمي في الكشوفات المجهرية.

يقول المصطفى ﷺ: «**لا يورد ممرض على مُصَح**»[1]، ويقول: «**فِرّ من المجذوم فرارك من الأسد**»[2]. ويقول ﷺ: «**لا ضرر ولا ضرار، ومن ضار ضاره الله، ومن شاقّ شاقّ الله عليه**»[3]. وجميع هذه النصوص تحذّر من العدوى، وتوصي بالصحة والسلامة، وبذا فإن الإسلام أسبقَ القوانين العالمية الصحية إلى هذا المضمار.

❁ خامساً: أثر البيئة والوراثة في اختيار الزوجة:

ثم إن الإنسان ثمرة البيئة والوراثة غالباً.

أما البيئة التي تعيش فيها البنت فعلى الخاطب أن يُدخلها بحسابه، فلا يخطبها من بيت متحلل بعيد عن الالتزام بالإسلام، يقول المصطفى ﷺ: «**إياكم وخضراء الدِّمَن**[4] ـ **المرأة الحسناء في المنبت السوء**»[5].

---

(١) أخرجه البخاري وأبو داود.

(٢) أخرجه البخاري.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) الدِّمن: هو السماد الحيواني للنبات.

(٥) أخرجه الرامهرمزي في أمثال الحديث، والقضاعي في مسند الشهاب، والخطيب البغدادي في تلخيص المتشابه، والعسكري في الأمثال.

وإن البيئة الصالحة لا ضمان فيها لصلاح البنت، ولقد ضرب القرآن الكريم أمثلة في فساد المرأة في بيت النبوة. فهذه زوجة نوح عليه السلام وزوجة لوط عليه السلام كافرتان: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾[1].

كما ضرب مثلاً في صلاح المرأة في بيئة الكفر: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾[2].

إذ الصلاح والهداية توفيق من الله ﷻ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[3].

ولقد ذكر الشاعر المسلم حواراً رائعاً صاغه بقصيدة جميلة بين الأم التي أهدت عروسة لولدها، وقد رفضها بسبب حرصه على ذات الدين التي تصوغ الأجيال المسلمة:

* * *

أمنية العريس المسلم

جاءته بعد الجهد قائلة له — أبشر بُنَيَّ ظفرتَ بالمتعلمة

(١) التحريم: ١٠.

(٢) التحريم: ١١.

(٣) القصص: ٥٦.

شقراء دون العشرين منمنمة وقوامها! يا حُسْنَه، ما أقومه!
(ميسون) أجمل ما رأت عينُ امرئ والوجنتان غضّ بهن العندمُ
عينان ضاحكتان ما أحلاهما سبحانَ من صاغ الجمال وتمّمه!
ما أروع (المكياج) ضاعفَ حُسنها ويزيل سحر الحسن، وهي مهندمة
داران في أرقى الشوارع عندها ومن النفائس كلُّ دار متخمَة
أما أبوها لو علمتَ مقامه كُبراء قومك ترتجي أن تخدمه
والأم مذ عرفت مرادي تمتمت وأنا التي أدعي بتلك التمتمه
ومُنى فؤادي أنتَ أدرى بالذي يرضى وأنت بُنيّ أهل المرحمة
فاختم بأشهى ما تمنى عمرُه واقبل بها، إن شئت لي أن تختمه

* * *

ما لي أراك كما عهدتك صامتاً هل يرضيك أن أظلّ محطّمه!

* * *

أمّاه شوقي لا يُحدّ لزوجة إن همتُ، أو قصّرتُ كانت ملهمة
أماه لي أملٌ، وما أملى سوى جيل، يعيد لنا حياة المكرمة
ميسون عاشت للنعيم، ولم تزل أدنى مناها أن تكون منعمَة
أماه، ما أرجو، وترجو أمتي ما كان إلا في زواج المؤمنة[1]

ويوصي الرسول ﷺ بالزواج من الولود: **«تزوجوا الودود الولود، فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة»**[2]، غير أن هذا

---

(١) مصطفى عكرمة/ تحفة العروس /٤٠٢ ـ ٤٠٣.

(٢) أخرجه أبو داود وأحمد وحسّن إسناده الحافظ الهيثمي في المجمع وابن حبان والحاكم والطبراني وسعيد بن منصور.

الاختيار بالولود لا يُعرف إلا بعد الزواج المقرون بالدعاء، أو أن يتزوج الرجل أرملة شابة ولدت الأولاد.

وأما **الوراثة**، وهي التي تمثل أبوي البنت، فإن لها أثرها في صلاحها، يقول ﷺ: «**تخيّروا لنُطَفكم**»[1]. والقرآن الكريم يشير إلى أثر الصلاح في النسب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾[2]، وهذه القاعدة في أثر الوراثة لا تصلح دائماً، بدليل صلاح إبراهيم وكفر والده آزر، وبدليل صلاح نوح وكفر ولده الغريق، وبدليل جواب الله تعالى لدعاء إبراهيم الصلاح لذريته: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3].

❁ سادساً: اختيار الزوج عبادة وسعادة:

لا يقلّ اختياره عن اختيار الزوجة، بل يفْضله بالأهمية، لأنها هي وأهلها إن تساهلوا في اختيار الزوج ولم يتأكدوا من صلاحه، ستقع الطامة الكبرى على الزوجة فتكون هي الضحية، وهي الضعيفة: «زوِّجها صاحب دين، فإن أحبها أكرمها، وإن كرهها لم يظلمها»[4]، كما تقع على الوالدين والأسرة جميعها.

وحين توفر الخاطب الذي هو صاحب دين وخلق، فذلك

---

(١) أخرجه ابن ماجه والدارقطني والحاكم والبيهقي والقضاعي، وورد في حديث آخر: (انظر في أي نصاب نضع ولدك، فإن العرق دساس). أخرجه القضاعي وابن عدي والديلمي.

(٢) آل عمران: ٣٣، ٣٤.

(٣) البقرة: ١٢٤.

(٤) كلمة الفاروق ﷺ.

هو الذي يديم الحياة الزوجية التي يتعبّد بها الزوجان ربهم، حتى لو كان مستواه الاقتصادي محدوداً، يقول النبي الزوج ﷺ: «**إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلاّ تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض**»[1].

والذي يدقق في هذا الحديث الشريف، يجد أن المصطفى ﷺ فرّق بين الدين والخلق، فالدين العبادة بين الإنسان وربه، والخلق هو السلوك العملي مع الناس، وقد يكون الرجل مصلياً صائماً ذاكراً حافظاً الكثير من القرآن وواعظاً وخطيباً، بل وعالماً، ولكن سلوكه سيء في التعامل، فلا بدّ من التأكد من سلوك الخاطب من معارفيه أولاً، ولا بد من تجربته، وإغضابه ليظهر حينئذ معدنه، وعلينا أن نذكر أن النبي الحكيم ﷺ حصر الدين كله في حسن المعاملة، فقال ﷺ: «**الدين المعاملة**»، كما حصره في الخلق: «**الدين حسن الخلق**»[2]، فمن لا خلق له لا دين له!.

ولا يغرّنَّ الأهلَ تودد الخاطب، وإظهار الطّيب والتديّن والإخلاص والغنى والمظاهر الخادعة، والشهود الذين يشفّعهم في الزواج، إذ: (الخاطب كاذب) ـ حكمة سائرة.

(أتى رجل بشاهد يشهد له عند الفاروق رضي الله عنه، فسأله: أنت

---

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه.

(٢) (جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من بين يديه، فقال: يا رسول الله، ما الدين؟ قال ﷺ: «**حسن الخلق**»، فأتاه من قبل يمينه، فقال: ما الدين؟ قال: «**حسن الخلق**»، ثم أتاه من قبل شماله، فقال: ما الدين؟ فقال: «**حسن الخلق**»، ثم أتاه من ورائه، فقال: يا رسول الله، ما الدين؟ فالتفت إليه وقال: «**أما تفقه؟**» هو أن لا تغضب)، أخرجه محمد بن نصر المروزي من رواية أبي العلاء بن الشخير مرسلاً ـ من العراقي في الإحياء.

جاره الأدنى الذي تعرف دخائل أمره؟ قال: لا، قال: أرافقته بالسفر؟ قال: لا، قال: أعاملته بالدينار والدرهم الذي يستبان به إيمان المؤمن؟ قال: لا، قال: أظنك رأيته في المسجد، يرفع رأسه تارةً، ويخفضها أخرى؟ قال: نعم، قال عمر ﷺ للشاهد: إنك لا تعرفه، وقال للرجل: اذهب وائتني بمن يعرفك). لذا فإن الشهادة الكاذبة إثم، والصادقة عبادة وثواب وسعادة الضمير.

ولا تنخدعنّ الفتاة بمظهر الخاطب ولا بغناه، ولا بمركزه الاجتماعي، إنما المهم جوهره وحقيقته، ولو كان فقيراً: (مَرّ رجل على النبي ﷺ، فقال لرجل عنده جالس: ما رأيك في هذا؟ فقال رجل من أشراف الناس، هذا والله حريّ إن خَطبَ أن يُنكَح، وإن شفع أن يشفَع، فسكت رسول الله ﷺ ثم سأله ﷺ ما رأيك في هذا؟ فقال: يا رسول الله، هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حَرِيّ إن خَطَبَ أنْ لا يُنكح، وإن شفع أن لا يشفَع، وإن قال أن لا يُسَمع قوله. فقال ﷺ: **«هذا خير من ملء الأرض مثل هذا»**[1].

❁ سابعاً: الخِطبة عبادة وسعادة:

ما دامت الخطبة مقدِّمة للزواج الذي به يتم نصف الدين، فهي عبادة في جميع مراسيمها، والإسلام يأذن بها، يقول ﷻ: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾[2].

---

(١) أخرجه البخاري.

(٢) البقرة: ٢٣٥.

ولا تكون الخِطبة إلا بعد دقة الاختيار، والقناعة المبدئية لكل منهما، من خلال النظر إليها والحديث معها، مع ذي محرم، لذا حذّر ﷺ: **«لا يخلوَنَّ أحدكم بامرأة إلا مع ذي محرم»**[1].

والاجتماع بينهما مشروط بالحديث الحسن المعروف، يقول تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾[2]، والاجتماع بها يوضح الكثير من عقلها وأدبها وصوتها وعاداتها، علماً بأن الخاطبين يحاولان إخفاء حقيقتيهما، ولا يُظهران إلا ما يُرضي بعضهما، فليكن الاثنان على علم بذلك وحذر.

ثم إن النظر إلى الخطيبة لا إثم فيه، وهو أمر نبوي يلزم التنفيذ، وتنفيذه عبادة، **«انظر فإنه أدوم بينكما»**[3]، وروي كذلك: **«إذا خطب أحدكم امرأة، فلا جناح عليه أن ينظر إليها إذا كان النظر إنما ينظر لخطبة، وإن كانت لا تعلم»**[4]، وذهب بعض الفقهاء إلى أنه يجوز للخاطب أن يرى من خطيبته ما يراه الأخ من أخته، قياساً على حديث رسول الله ﷺ: **«إذا خطب أحدكم المرأة، فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل»**[5].

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم، اللؤلؤ والمرجان ٧٤/٢ بلفظ **«لا يخلونّ رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم»**.

(٢) البقرة: ٢٣٥.

(٣) أخرجه البخاري.

(٤) أخرجه ابن ماجه وابن حبان بلفظ: **«إذا ألقى الله في قلب امرىء خطبة امرأة، فلا بأس أن ينظر إليها»**.

(٥) أخرجه أبو داود وأحمد والحاكم.

واختلف في حجم الرؤية للخطيبة. قال الإمام ابن القيم في (تهذيب السنن) (٢٥/٣ ـ ٢٦): قال أحمد: ثلاث روايات: **إحداهما**: ينظر إلى وجهها ويديها، **والثانية**: ينظر إلى ما يظهر غالباً كالرقبة والساقين ونحوها، **والثالثة**: لا أذكرها أنا(١)!

ثم إن الخاطب لا يحق لأحد منافسته في خطبته إلا بعد انسحابه منها، يقول النبي الهادي ﷺ: «**المؤمن أخو المؤمن فلا يحل لمؤمن أن يبتاع على أخيه، ولا يخطب على خطبة أخيه، حتى يذر**»(٢).

وإن الخطبة قد تنتهي أحياناً إلى تغيير أحد الخاطبين رأيه، لذا أوصى ﷺ بإخفائها **حذراً** من التقولات التي تشاع على البنت المخطوبة بسبب الإحجام عنها: «**أظهروا النكاح وأخفوا الخطبة**»(٣).

وكما أن الرجل هو الإيجابي والبادىء بالخطبة، فمن حق المرأة أن تخطب الرجل تكريماً لها، وممارسة لحريتها في الخطبة كالرجل، يقول رب العالمين: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾(٤)، وقد حدث ذلك لمحمد ﷺ، إذ خطبته خديجة رضي الله عنها، عن طريق خادمها ميسرة، فاستجاب ﷺ، بعد الاعتذار بسبب العُدم، ويذكر القرآن الكريم هذا الحق الذي مارسته المرأة في الخطبة، فعرضت نفسها على رسول الله ﷺ ليتزوجها: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا

(١) تحفة العروس ٥٣/ بالهامش.
(٢) أخرجه مسلم.
(٣) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس.
(٤) البقرة: ٢٢٨.

﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، فلم ينهها ﷺ عن ذلك، وفي عدم النهي إقرار لمن وراءها من النساء، أن يخطبن الرجال. وامتدحها الله تعالى بوصفها (مؤمنة)، وأعطى رخصة لرسول الله ﷺ أن يستنكحها بعد هذا العرض.

ولا إكراه في الزواج لأحد، إذ العصمة بيد البنت: «**الثيب أحق بنفسها من وليها، والبكر تُستأذن في نفسها، وإذنها صماتها**»، وفي رواية أخرى: «**لا تنكح الأيّم** ـ التي يموت عنها زوجها ـ **حتى تُستأمَر، ولا تُنكَحُ البكر حتى تُستأذَن** ـ إذنها أن تسكت»[2].

ولو أكره ولي الأمر البنت على الزواج بأحد تكرهه، إنما ذلك إثم، لا يقره الإسلام، وإعطاؤها الحرية في اختيار الزوج إنما هو عبادة: (جاءت فتاة إلى رسول الله ﷺ، فقالت: إن أبي زوجني من ابن أخيه ليرفع به خسيسته، فجعل ﷺ الأمر إليها ـ أي ترك الخيار لها ـ فقالت: قد أجزتُ ما صنع أبي ـ احتراماً لأبيها، رغم أن زواجها ضد رغبتها بمن تكرهه ـ، ولكني أردت أن أُعلم النساء أن ليس إلى الآباء من شيء)[3] ـ تعني أنه ليس لهم إكراههن على التزوج بمن لا يرضينه.

❁ ثامناً: الحبّ والزواج:

ولعلّ سائلاً يسأل: هل يسبق الحبّ الزواج؟

(١) الأحزاب: ٥٠.
(٢) أخرجه البخاري ومسلم.
(٣) أخرجه النسائي وابن ماجه والدارقطني وإسحاق بن راهويه في مسنده.

فالجواب أن الحبّ ليس شرطاً قبل الزواج، ولكنه ليس بمحرّم، ولا يستمكن عادة من الرجل المرأة إلا بعد العشرة، وهي محرّمة قبله، ولكن قد يحب بعضهما من خلال اللقاءات مع المحارم، أو من قبل النظر العابر ولا حرج في ذلك، فإن حل الحبّ قبل الزواج فلا حرج منه، ولا دواءَ له إلا الزواج، يقول ﷺ: «**لم يُرَ للمتحابين مثلُ النكاح**»[1]، وبلغ من أهمية الحب في الزواج عند النبي الزوج الحكيم أن أهدر ﷺ زواج بنت لمن تكره، وزوجها بمن تحب في حديث صحيح: (زوّج رجل على عهد رسول الله ﷺ ابنة له، وكان خطبها قبل ذلك آخر، فبلغ النبي ﷺ أنها كارهة هذا الذي زوجها أبوها، وأنه كان يعجبها أن يزوجها بالآخر، فأهدر النبي ﷺ نكاح أبيها، وزوجها ممن تريد)[2].

يستحب اللقاء المحتشم بالخطيبة مع المحرم، كما يحسن الإهداء إليها: «**تهادوا تحابّوا**»[3]، «**عُدْ من لا يعودك وأهد من لا يُهدي لك**»[4].

وإن لم يسبق الزواج الحب، فقد تكفل ربّ العالمين بهذا الحب بينهما، حتى إذا التقيا، انغرس حبها في قلب الرجل: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ

(١) أخرجه ابن ماجه والحاكم والبيهقي والطبراني وغيرهم.

(٢) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير والبيهقي في شعب الإيمان، وقال: هذا مرسل جيد.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد والإمام مالك في الموطأ، وأبو يعلى والبيهقي في شعب الإيمان.

(٤) أخرجه البخاري.

﴿بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾[1]، فالمودة والرحمة تودع فيهما ساعة اجتماعهما، وذلك من آيات الله وعظمته في خلقه، حين يتفكر بها الزوجان.

مر أبو بكر الصدِّيق ﷺ في خلافته بطريق المدينة، فإذا بجارية تطحن برحاها، وتقول:

وهَويتُه من قبل قَطْعِ تمائمي متمايساً، مثل القضيب الناعم
وكأنَّ نور البدر سُنَّةَ وجهه يُنمي ويصعدُ في ذؤابة هاشم

فدق عليها الباب، فخرجت إليه، فقال: ويلك، أحرّة أنت أم مملوكة؟ قالت: بل مملوكة، يا خليفة رسول الله. قال: فمن هويتِ؟! فبكت، ثم قالت: بحق الله عليك إلا انصرفتَ عني، قال: لا أديمُ أو تعلميني. فقالت:

وأنا التي لعب الغرامُ بقلبها فبكت لحُبِّ محمد بن القاسمِ

فصار أبو بكر إلى المسجد، وبعث إلى مولاها، فاشتراها منه، وبعث إلى محمد بن القاسم بن جعفر بن أبي طالب، وقال: هؤلاء فتن الرجال، وكم مات بهنّ من كريم، وعطب عليهن من سليم[2].

وجاءت جارية عثمان بن عفان تستعدي على رجل من الأنصار، فقال لها عثمان: ما قضيتك؟ قالت: يا أمير المؤمنين، كلفت بابن أخيه، فما أنفكُّ أراعيه، فقال له عثمان: إما أن تهبها

---

(١) الروم: ٢١.
(٢) تحفة العروس /٦٧.

لابن أخيك، أو أعطيك ثمنها من مالي؟ فقال: أشهدك يا أمير المؤمنين أنها له[1].

وكان مغيث يمشي خلف زوجته بربرة، بعد فراقها له، وقد صارت أجنبية عنه، ودموعه تسيل على خديه، فقال النبي ﷺ: **«يا ابن عباس، ألا تعجب من حبّ مغيث بربرة، ومن بغض بربرة مغيث؟!»** ثم قال لها ﷺ: **«لو راجعته»**. فقالت: أتأمرني! فقال ﷺ: **«إنما أنا شافع»**، قالت: **«لا حاجة لي فيه»**[2].

❁ تاسعاً: عقد النكاح عبادة وسعادة:

هو عقد بين الزوجين يحل به الوطء[3].

إن قلب الخاطبين ليهفوان إلى هذه الساعة التي يتم فيها العقد الذي سيتم به إكمال نصف الدين، فهو عبادة في سائر إجراءاته، وفي مقدماته وخلاله، وفي انتظار نتائجه وهو الزواج، كل ذلك عبادة موصولة.

وكان ﷺ يبارك للرجل بقوله: **«بارك الله لك، أوْلِمْ ولو بشاة»**[4].

---

(١) تحفة العروس/ ٦٧.

(٢) تحفة العروس/ ٦٤، ٦٥، قال الإمام ابن القيم تعليقاً على هذا الحديث: فهو شفاعة من سيد الشفعاء، لمحبّ إلى محبوبته، وهي أفضل الشفاعات وأعظمها أجراً عند الله، فإنها تتضمن اجتماع محبوبين على ما يحب الله ورسوله، فلهذا كان أحب ما لإبليس وجنوده التفريق بين هذين المحبوبين ـ تحفة العروس ـ الهامش/ ٦٥.

(٣) صفوة الأحكام، نيل الأوطار وسبل السلام/ ٤٧.

(٤) أخرجه البخاري ومسلم، اللؤلؤ والمرجان/ ٩/٢، لم يرد مجموعاً هكذا في حديث واحد، بل هو حديثان أخرجاهما.

ولئن كانت الخطبة بالسر فإن النكاح بالعلن: **«أعلنوا النكاح واجعلوه في المساجد، واضربوا عليه بالدفوف»**[1]، لأن إعلانه شكر لله على نعمة الزواج، وبيان للناس بحصول هذا الزواج الذي هو نصف الدين، وعلى المدعوّين إلى النكاح أن يحضروه: **«إذا دُعي أحدكم إلى وليمة عُرس فليجب»**[2].

❀ عاشراً: وليمة العرس وآدابها:

ولا بدّ للعرس من وليمة، إشعاراً وإعلاناً لفرحة الزواج: **(لا بد للعرس - وفي رواية للعروس - من وليمة»**[3]، وأقل ما في هذه الوليمة شاة: **«أولم ولو بشاة»**[4]، وذلك تكريماً للمدعوين إلى النكاح، وإسهامهم بالأفراح.

وإن دعوة العرس تلبّى توطيداً للصلات بين الأسر والأقارب والأصدقاء كما تلبّى كل دعوة ولا ترد: **«من لم يجب الدعوة، فقد عق الله ورسوله»**[5].

ويؤكد القرآن الكريم استجابة الدعوة، كما يوصي بالخروج بعدها: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا

---

(١) أخرجه الترمذي.

(٢) أخرجه مسلم.

(٣) أخرجه النسائي في السنن الكبرى وأحمد والطحاوي والدولابي في الذرية الطاهرة.

(٤) أخرجه الجماعة.

(٥) أخرجه مسلم وأحمد.

يَسْتَحْيِ، مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[1].

وعلى المدعو الحضور إلى الدعوة صائماً كان أو مفطراً، يقول النبي الكريم ﷺ: **«إذا دُعي أحدكم إلى طعام فليجب، فإن كان مفطراً، فليطعم، وإن كان صائماً فليدع»**[2]، إذ أن استجابة الدعوة حتى من غير أكل إنما هي تكريم للداعي، وعلى صاحب الوليمة ألاّ يختار الأغنياء دون الفقراء، إذ هي مظهر لإشاعة الود بين المسلمين من غير تفريق لذا قال ﷺ: **«شرّ الطعام الوليمة، يدعى إليها الأغنياء، ويمنعها الفقراء»**[3].

واجتماع الوليمة مظهر مفرح لحضور المدعوين، إذ الحضور أدعى للسرور من الطعام ذاته: **«خير الطعام ما تكاثرت عليه الأيدي»**، كما في الأثر.

أما اختيار المدعوين إلى الوليمة فيحسن أن تكونوا أتقياء، يقول النبي المربي ﷺ: **«لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي»**[4].

ومن السنة أن تكون وليمة أخرى صباح العرس، إذ «أولم رسول الله ﷺ، حين بنى بزينب، فأشبع المسلمين خبزاً ولحماً، ثم خرج إلى أمهات المسلمين فسلّم عليهن، ودعا لهن، وسلّمن عليه، ودعون له، فكان يفعل ذلك صبيحة بنائه»[5].

---

(١) الأحزاب: ٥٣.
(٢) أخرجه مسلم وأحمد.
(٣) أخرجه مسلم.
(٤) أخرجه أبو داود والترمذي وأحمد والحاكم وابن حبان.
(٥) أخرجه النسائي ـ في السنن الكبرى، وأحمد وأبو يعلى وابن سعد في الطبقات.

ويستنّ الدعاء للعروس والعريس، الدعاء الذي يسرّهما في بركة الله تعالى لهما في حياتهما التعبدية السعيدة: **«بارك الله لك، وبارك عليك، وجمع بينكما بالخير»**[1].

أما الدعاء للعروسين الدعاء المألوف (بالرفاه والبنين) فهو تهنئة جاهلية وقد نهى ﷺ عن ذلك الدعاء[2]، ذلك أن الحسن بن عقيل بن أبي طالب تزوج امرأة، فدخل على القوم، فقالوا: (بالرفاه والبنين)، فقال: لا تفعلوا ذلك، فإن رسول الله ﷺ نهى عن ذلك.

وحين مغادرة المدعويين لأية وليمة، يودعون أهل الوليمة بما يلي من الأدعية:

١ ـ يقول المصطفى ﷺ: **«اللّهم اغفر لهم، وارحمهم، وبارك لهم فيما رزقتهم»**[3].

٢ ـ ويقول كذلك ﷺ: **«اللّهم أطعم من أطعمني، واسق من سقاني»**[4].

٣ ـ كما أوصى بهذا الدعاء: **«أكل طعامكم الأبرار، وصلت عليكم الملائكة، وأفطر عندكم الصائمون»**[5].

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذي ـ وقال فيه: حسن صحيح، وأخرجه الحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم، أخرجه الدارمي وابن السني والطبراني في الكبير وأبو الشيخ ابن حبان في طبقات المحدثين بأصفهان.

(٢) تحفة العروس/ ١٦٣ ـ ١٦٤.

(٣) أخرجه أحمد وابن حبان في صحيحه، والنسائي في السنن الكبرى والبيهقي.

(٤) أخرجه مسلم وأحمد.

(٥) أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي في الكبرى وابن ماجه.

❀ أحد عشر: المهر وتيسيره:

وهو رمز لإكرام المرأة وتقديرها، وهو حقها، أمراً من الله: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ۝٤﴾[1]، فلا بد من المهر كاملاً للزوجة، وليس لأحد حقّ فيه، لا أهلها ولا زوجها، إلاّ أن رغبت هي أن تعطي منه طوعاً، فذلك لها. والتعامل المادي في الإسلام عبادة، لا سيما التعامل مع مال المرأة، إذ يصعب عليها الحصول عليه، وانتزاع المال منها ليس إثماً فحسب، وإنماهو جريمة واعتداء صارخ عليها! وإن هذا المهر تَحسب هي له الحساب، إذ هو رأس مالها وهو رصيدها النقدي في حياتها، تفكر أن تسخره لها ولأطفالها، كما شاءت، أو تخزنه لنوائب الزمن، وتزكّيه، إضافة إلى اعتزازها به، إذ هو رمز تكريمها وحبها من قبل زوجها.

ثم إن هذا المهر (الصداق) لم يحدد الإسلام حجمه، بل تركه لقدرة الخاطب، فإن شاء قنطاراً من الذهب، فلا يمانع الإسلام: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ۝٢٠﴾[2].

غير أن الإسلام يرغب بأرخص المهور، تيسيراً للزواج: «**خير الصداق أيسره**»[3]، وجعله الله سبباً في البركة: «**أعظم النساء بركة أيسرُهن مؤونة**»[4].

---

(١) النساء: ٤.

(٢) النساء: ٢٠.

(٣) أخرجه الحاكم، سبل السلام ١٥٢/٣، وصححه والبيهقي.

(٤) أخرجه النسائي في الكبرى.

ولقد يسّره ﷺ إلى أدنى مستوى، وهو بثمن (درهم): «التمس ولو خاتماً من حديد»، فقال ﷺ: «ما معك من القرآن؟» قال: سورة كذا وكذا، فقال ﷺ: «**زوجتكما بما معك من القرآن، فعلمها القرآن**»[1]، وفي رواية البخاري: «**انطلق فقد زوجتكما**».

والغاية من هذا التيسير سلامة لنصف الدين، وتيسير الزواج للجنسين، وهو عبادة موصولة باجتماعهما زوجين، خيراً من عبثهما بين وساوس الشيطان وفساد الواقع، وحين تغلو المهور يعزف الرجل عن الزواج، بل يفسدان وتضيع أوقاتهما وأموالهما وجهودهما بالعبث الجنسي ـ بالخيال والأحلام أو بالواقع المرير، وضياعهما إثم ووزر. إضافة إلى خسارة المجتمع لهما وخسارة الإنجاب المبكر لهما، وزواجهما كسب لهما وتعبد وثواب وسعادة، وخير البر عاجله.

والمرأة التقية العاقلة، تباهي برخص مهرها، والمرأة المستكبرة، تباهي بغلائه، والأولى هي خير النساء عند الله وعند أهلها الصالحين وعند زوجها الصالح، يقول النبي الزوج ﷺ: «**خير النساء أحسنهن وجوهاً، وأرخصهن مهوراً**»[2]. بل إن رخص مهرها إنما هو يمن لها، كما يوصي ﷺ: «**إن من يمن المرأة تيسير خطبتها، وتيسير صداقها، وتيسير رحمها**»[3].

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم، اللؤلؤ والمرجان ٩٤/٢.

(٢) أخرجه ابن عدي في الكامل في الضعف.

(٣) أخرجه أحمد والنسائي، وأخرجه الحاكم «**خير الصداق أيسره**»، والبيهقي والطبراني في الأوسط والصغير.

إن غلاء المهور الفاحش اليوم يحرم الرجل، لا سيّما الموظف في العالم العربي والإسلامي عموماً من الزواج المبكر، ليصل عمره إلى ما بعد الثلاثين، ليحقق المهر المقبول المتعارف عليه اليوم وأكثره (دَيْن)، بما في هذا التأخير من مآسٍ على الرجل والبنت، إضافة إلى أن البنت تفقد زهرة شبابها في سنّ المراهقة، لتنتظر ضعف عمر الزواج! لا سيما طالبات الكليات والدراسات العليا، إضافة إلى فقدانها السعادة التي تحلم بها في مقتبل شبابها، والعقدة النفسية في الكبت.

وإن أحق ما للمرأة في الزواج (المهر): **«أحق الشروط أن توفّوا به ما استحللتم به الفروج»**[1]، أما من أكل عليها حقها خداعاً، ومات فهو زانٍ، يقول النبي الحكيم ﷺ: **«أيما رجل تزوج امرأة على ما قلّ من المهر أو كثر، وليس في نفسه أن يؤدي إليها حقها، خدعها، فمات ولم يؤد حقها، لقي الله يوم القيامة وهو زانٍ»**[2].

ومن أبلغ وصية أب لخاطب ابنته، هي وصية عثمان بن عنبسة بن أبي سفيان، حيث أجلسه بجانبه وأخذ يمسح على رأسه، ثم قال: (أقربُ قريب، خطب أحبّ حبيب، لا أستطيع له ردّاً، ولا أجدُ من إسعافه بُدّاً، قد زوجتكما، وأنت أعز عليّ منها، وهي ألصق بقلبي منك، فأكرمها يعذبْ على لساني ذكرك، ولا تهنها فيصغر عندي قدرُك، وقد قرّبتك مع قربك، فلا تبعد قلبي من قلبك).

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) أخرجه الطبراني ورجاله ثقات، قاله الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد، وأخرجه أحمد والبيهقي.

ولنا بزواج عليّ ﷺ أسوة، بيسر المهر، وكان مهرها (٥٠٠) درهم بما يساوي اثنتي عشرة أوقية فضة[١]، وقال ﷺ: «**أعطها شيئاً يا علي**»، فأجاب: ما عندي من شيء! فسأله ﷺ: «**أين درعك الحطمية؟ فأعطاها إياه**»[٢].

«وقد زوجها علياً بأمر من ربه ﷻ»[٣].

وفي وصيته ﷺ لعلي ﷺ في فاطمة ﵂ قال ﷺ: «**هي لك على أن تحسن صحبتها**»[٤].

قال علي ﷺ: (تزوجت فاطمة، وما لي ولها فراش غير جلد كبشٍ، ننام عليه بالليل ونعلف عليه الناضح بالنهار، وما لي ولها خادم غيرها)[٥].

وقال جابر ﷺ: (حضرنا عرس عليّ وفاطمة، فما رأيت عرساً كان أحسن منه: حشونا الفراش ـ يعني بالليف ـ وأتينا بتمر وزبيب، فأكلنا، وكان فراشها إهاب كبش)[٦]!!.

وحين زواجها أرسل رسول الله ﷺ معها خميلة ووسادة أدم، حشوها ليف، ورحيين لطحن الحبوب، وسقاء وجرتين[٧]!!

---

(١) تحفة العروس /٦٥، أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه النسائي والحاكم وهو صحيح.

(٣) الجمهرة ج١/٣٤٥.

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ـ وهو صحيح.

(٥)(٦) صفوة الصفوة ج١/٣٣٨ ـ ٣٣٩. قال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد: أخرجه الطبراني في الأوسط، وفيه مسلم بن خالد الزنجي، وهو ضعيف، وقد وُثّق» والبزار.

(٧) المصدر السابق ج١/٣٤٠.

هذا عرس بنت رسول الله! علماً بأن الوسادة التي حشوها ليف هي كالحجر صلابة! فكيف تكون وسادة! ﷺ أجمعين، والرحيّان لا واحدة، هي لطحن الحبوب!.

ويحدُث الإمام علي ﷺ: (أن لهما غطاء إذا غطّيا به رؤوسهما تكشف أقدامهما، وإذا غطيا أقدامهما تكشف رؤوسهما)[1]!!

وحين سمع الإمام علي ﷺ بسبي جاء إلى رسول الله ﷺ، فأتياه، فقال علي: (يا رسول الله، لقد سنوت حتى اشتكيت صدري، وقالت فاطمة حتى مجلت يداي، وقد جاءك الله ﷺ بسبي وسعة فاخدم منا).

وفي رواية أخرى: (إن فاطمة بنت رسول الله لتجرّ بالرحى حتى أثرت الرحى بيدها، واستقت بالقربة، حتى أثرت القربة بنحرها، وقمّت البيت حتى اغبرّت ثيابها، وأوقدت تحت القدر حتى دنست ثيابها، أصابها من ذلك الضرّ، والرسول ﷺ يعلم بذلك ولم يعطها خادماً، فقال ﷺ: **«والله لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تطوي بطونهم، لا أجد ما أنفق عليهم، فرجعا»**[2]!!

صلى الله عليك يا خير المرسلين، بزواج ابنتك سيدة النساء المؤمنات في الجنة بابن عمك المبشر بالجنة أيسرَ زواج بعمر التاريخ وأبركه!.

---

(١) المصدر السابق ج١/٣٤١.

(٢) المصدر السابق ج١/٣٤١.

الفصل الرابع

الحياة الزوجية المطمئنة ـ عبادة وسعادة

الفصل الرابع

الحياة الزوجية المطمئنة ـ عبادة وسعادة

❋ توطئة:

الحياة الزوجية التي يخطط لها الإسلام أسعد حياة وأتقاها منذ ليلة العرس حتى نهاية العمر.

تزف العروس إلى زوجها، وهي أمانة في قلبه، يبدأ معها بالصلاة والدعاء، ليبارك عرسهما وحياتهما القادمة، وهو القوام عليها بيده القيادة، مع مشورتها واحترام رأيها، وهو القائم بخدمتها على حاجاتها، ولكلمته مكانتها المسموعة في البيت، وهي الطيعة الوفية تجاوباً مع ما تحب من الانقياد إلى الرجل، وهي في سلوكها هذا تتعبد به ربها، وشاعرة بالسعادة تنبض في كيانها.

وعلى الزوج الإنفاق بسخاء على زوجته وعلى شؤون البيت والأولاد وفي عمله لكسب رزقه جهاد وثواب وسرور، بإسعاده البيت بالصرف عليه.

ومن تمام السعادة بينهما ألا يتصيّد لها الأخطاء، وإن يغض

عنها الطرف، ويكثر من العفو، يقول الله ﷻ: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[1]، إذ الجميع خطاء، ولا ينسى فضلها عليه، ولا تنسى هي فضله عليها: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾[2]، وليكن كل منهما وفيّاً للآخر، وما أسعد الزوجين الأوفياء! لذا فلا كره ولا مشكلات ولا نشوز مع الوفاء، وإنما هو الأدب والاحترام المتبادل والرفق في التعامل يحول دون ذلك، إضافة إلى خلق الزوج جوّ المرح في البيت مع الرحلات القصيرة والمساعدة وتجنّب وقوع التنافر. إذ أن درهم وقاية خير من قنطار علاج. وحين تعامل الزوجة مع زوجها تعامل حب وطاعة وأدب ووفاء وتقوى وتعامل الزوج معها بالمثل تحلّ السعادة والوفاق، ويتذوقان طعم العبادة الخاشعة لرب العالمين.

* * *

---

(١) البقرة: ٢٣٧.

(٢) البقرة: ٢٣٧.

❁ المبحث الأول:
تعبد الزوج بسلوكه الإسلامي إزاء زوجته:

❁ أولاً: العرس عبادة وسعادة:

زفاف العروس لزوجها:

لقد كان الربط الدقيق في الزواج الإسلامي بين السعادة النفسية للزوجين وبين سعادتهما الروحية، من خلال ما سنّه الإسلام لهما منذ أول وهو العُرس في بيت الزوجية.

العروسة ما بين فرح بفارس أحلامها، حين تزفّ إليه، وما بين خجل واضطراب، وهي لا تعرفه بدقة ولكنها تظن به الخير، إنها تشعر أنها أمانة الله عنده، بسبب عقدة النكاح وهو الميثاق الغليظ في رعايتها. يقول المصطفى ﷺ: **«إنما النساء عندكم عوان، لا يملكن لأنفسهن شيئاً، أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً، اللّهم هل بلّغت، اللّهم اشهد»**[1]، فهي أمانة الله عند زوجها العمر كله، والعوان جمع عاني، وهو الأسير.

من أجل ذلك أوصى ﷺ الزوج أن يستقبل عروسته بما يرويه أبو سعيد مولى بني أسد، قال: (تزوجت امرأة فدعوت أصحاب النبي ﷺ فعلموني، وقالوا: إذا دخلت عليك أهلك ـ أي عروستك ـ فصلّ ركعتين قبل الدخول بها، ومرها فلتصلّ خلفك، وخذ بناصيتها، وسم الله ﷻ، وقل: اللّهم إني أسألك

(١) في حجة الوداع ـ أخرجه الترمذي.

من خيرها وخير ما جبلتها عليه، وأعوذ بك من شرها وشر ما جبلتها عليه ثم شأنك وشأن أهلك)[1]. أو يقول ما قاله عبدالله بن مسعود ﷺ: (اللّهم بارك لي في أهلي، وبارك لهم فيّ، اللّهم أجمع بيننا ما جمعت بخير، وفرّق بيننا إن فرّقت بخير)[2].

أما صباح العرس، فمن السنّة أن يواجها أهليهما والمهنئين في صباح ذلك اليوم، يسلمان عليهم، فرحين بزواجهما، شاكرين ربهما على نعمة الزواج الكبرى التي جمعت لهم سعادة الدنيا والآخرة ـ ابتداءً ببناء البيت المسلم.

وهذا الاستقبال الكريم هو مفتاح العبادة بين الزوجين، بل مفتاح سعادتهما كذلك، حين اقتران حبّ الزوجين بحب الله ﷻ.

ومن التقاليد الإسلامية في هذا الاستقبال المبارك جلوس الزوج إلى جانب عروسته، يقدّم لها ما تشرب بيده، إشعاراً لها بالود، وهكذا فعل ﷺ مع زوجه عائشة ﵂، إذ (جلس بجانبها وأخذ قدحاً فيه لبن، فشرب ثم ناولها، فخفضت رأسها واستحيت، فانتهرتها أختها أسماء: خذي من يد رسول الله ﷺ، فأخذت وشربت، ثم قال لها: «أعطي تِربَكِ ـ أي صديقاتك ـ»)[3].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ونسبه المقدسي في المغني إلى كتاب مسائل صالح بن أحمد.

(٢) أخرجه عبدالرزاق، والطبراني. وقال عنه الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله رجال الصحيح.

(٣) أخرجه أحمد والحميدي في سنده.

وأكد الإسلام في توثيق المحبة وإشاعة الفرحة بين الزوجين بالمداعبة والفكاهة، يقول النبي الزوج ﷺ: «**كل شيء ليس من ذكر الله لهو ولعب، إلا أن يكون أربعة: مداعبة الرجل امرأته**...»[(١)] وهكذا فإن مداعبة الزوجة رفعها الإسلام إلى منزلة الذكر! هذا إضافة إلى إشاعة روح السرور في البيت، إذ كان ﷺ في بيته أفكه الناس[(٢)].

❁ ثانياً: القوامة - هي أوسع مجال العبادة للرجل من خلالها في التعامل مع زوجته وإسعادها:

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾[(٣)].

أسباب نزولها[(٤)]: «كان في لطم زوج لزوجته على وجهها، فحكم الرسول ﷺ بحكمه بعجالة: «**بينكما القصاص**»[(٥)]، فنزل عليه: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾.

أي أنهم يقومون بالقيادة لهن وبالنفقة عليهن والذبّ عنهن، وكثرة الخدمة لهن «وإن لم يكن الرجل قواماً عليها كان لها فسخ العقد».

---

(١) عزاه الحسيني في كتاب البيان والتعريف إلى النسائي، وقال: (وفي الإجابة لابن حجر: إسناده صحيح، ورمز السيوطي إلى حسنه).

(٢) رواه الزبير بن بكار، في كتاب الفاكهة، وابن عساكر في تاريخه، والحسن بن سفيان في مسنده.

(٣) النساء: ٣٤.

(٤) تفسير القرطبي - (الجامع لأحكام القرآن).

(٥) طه: ١١٤.

معنى القوامة: ويفسرّ (سيد) في الظلال معنى القوامة من خلال مسؤولية المرأة في أنها «تحمل وترضع، وتكفل ثمرة الاتصال بينها وبين الرجل، وهي وظائف مهمة وخطيرة. فكان عدلاً كذلك أن ينوط بالشطر الثاني (الرجل) توفير الحاجات الضرورية، والحماية للأنثى، لتتفرغ لوظيفتها الخطيرة [في تربية الأجيال]. فلا يحمل عليها أن تحبل وتضع وترضع وتكفل، ثم تعمل وتكد وتسهر لحماية نفسها وطفلها في آن واحد».

وعدل أن يمنح الرجل من الخصائص في تكوينه العضوي والعصبي والعقلي والنفسي ما يعينه على أداء وظائفه، وتمنح المرأة في تكوينها العضوي والعصبي والعقلي والنفسي ما يعينها على أداء وظيفتها تلك.

فالزوجة الصالحة قانتة، يقول الله تعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ...﴾، والقنوت: هو الطاعة عن إرادة وتوجه ورغبة ومحبة، لا عن قسر وإرغام وتفلت ومفاصلة، إذ لم يقل القرآن: (طائعات، بل قانتات)[1].

والرجال يقومون بأمر النساء ويحافظون عليهن لسببين:

١ ـ خصائص الرجولة ومقوماتها الجسدية، وزيادة الخبرة.

٢ ـ الإنفاق على الأسرة كلها، ودفع الصداق[2].

ويضيف صاحب تاج العروس أن عجلة القيادة لا بد من واحد، لا اثنين، وإن المرأة منذ فجر التاريخ لا تشعر بالأمن إلا

(١) تفسير الظلال /٦٤٨ ـ ٦٥١.

(٢) تحفة العروس /٢٣٦، الهامش.

بجانب الرجل، وتكل إليه دائماً حمايتها وحماية أولادها، وحتى اليوم[1].

ومن معاني القوامة الحكيمة ما يأتي:

١ ـ **القوّام**: صيغة مبالغة من قام يقوم ـ أي هو كثير القيام على خدمة زوجته، بما يسعدها في توفير حاجاتها لها ولبيتها ولأولادها، وهم أولاده كذلك، وهذا يحمله على أن يعمل طيلة نهاره ليهيىء المال لهذه الحاجات، وفي جميع وسائل القيام على زوجته عبادة موصولة مأجورة، وسعادة للرجل ولأسرته.

ومن وسائل القيام قيامه على صحتها النفسية في غربتها عن أهلها وأقربائها، وعنه سحابة النهار، ليسعدها بعد ذلك بما يملك من وقت فائض يؤنسها فيه، في بيتها الذي يستنفد جميع أوقاتها من جهود مضنية فيه.

وهو كثير القيام على صحتها الجسمية، بسبب ضعفها، وبسبب الحمل والوضع والفصال ـ الذي يتكرر كل سنة أو سنتين، بما يزيدها من جهدها الموصول، وعليه أن يعينها إذا قدر بالخادمة على قدر الحاجة، وعلى الزوج في هذه القوامة أن يذكر دائماً وصايا الرسول الرحيم بهن. وهو أيضاً كثير القيام على مسؤولية الأولاد، ورفع بعض أعبائهم التربوية عنها، لا سيما في فترة الطفولة المتأخرة، أن لا يدعهم نهب الشارع أو الصداقات المنحرفة، أو برامج التليفزيون والإنترنت المنحرفة، والمشكلات بينهم في البيت.

لأن أدق مسؤوليته في هذه القوامة هي تربية الجيل المسلم

(١) تحفة العروس /٢٣٨، الهامش.

الذي من أجله كان الزواج، وفي جميع مسؤوليات هذه الأنواع من القوامة عبادة وأجر عميم، وسعادة برضوان الله عنه. فالقوامة تشريف للرجل وتكليف بتحمله القادر، لا محاباة ولا استبداد.

وفي التوراة إشارة إلى القوامة (١٦ ـ ١٧)، في سفر التكوين: (وإلى رجلك يكون اشتياقك، وهو يسود عليك)!

«وإن قوامة الرجل تحبها المرأة السليمة الفطرة في رجلها، تحب فيه القوة والحكم، تحبه سيدها ومولاها، وتكره فيه التخنث والميوعة والضعف، وإن من قانون فرنسا برقم المادة (٢٣٨): الزوج رئيس الأسرة»[١].

٢ ـ **القيادة**: وهي من معاني القوّامة كذلك، إذ لا بد لكل مؤسسة من قيادة تدير دفتها، وتُحكِم إدارتها وفي هذه القيادة الحازمة الهادفة إلى مرضاة الله عبادة دائمة في الأسرة، والأسرة أخطر مؤسسة تربوية واجتماعية واقتصادية، تحتاج إلى قيادة، وهي بيد الرجل، بقول النبي العربي ﷺ: «**لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة**»[٢]، ويقول كذلك: «**إذا كنتم ثلاثة في سفر فأمّروا عليكم أحدكم**»[٣]، مع ممارسة الشورى بينه وبين زوجه وأولاده الكبار.

ولا بدّ من رأي واحد يقود البيت، وإن تشتت الآراء تمزقت الأسرة!

---

(١) تحفة العروس /٢٣٨، الهامش.

(٢) أخرجه البخاري.

(٣) أخرجه الطبري بإسناد رجاله رجال الصحيح. قاله الهيثمي في مجمع الزوائد.

سارت مشرِّقةً، وسرتَ مغرِّباً شتان بين مشرِّق ومغرِّب!

والإسلام يوصي بالتماسك، ورفض الشتات، يوصي الرسول الكريم ﷺ: **«الجماعة رحمة، والفرقة عَذاب، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية»**[1]، وسبب القوامة في (القيادة) بيد الرجل، أنه أرجح (عقلاً)، والمرأة أرجح منه (عاطفة)، والأب يخافه الأولاد ويحذَرونه لشدته وحزمه، والأم يطمعون بحنانها عن طاعتها والخوف منها، كما يحذر الأولاد الأب الذي بيده المال، حذراً من عقابه بحرمانهم منه، وطمعاً ببذله عليهم.

٣ ـ **الطاعة لزوجها**: ومن معاني هذه القوامة في (القيادة) بيد الرجل طاعة الزوجة لزوجها وهي عبادة مأمورة بها، وتنبع من فطرتها كذلك، وفي هذه الطاعة عبرة للأولاد في احترام رأي والدهم الذي تخضع له أمهم، كما في قول المصطفى ﷺ: **«حق الزوج على المرأة أن لا تهجر فراشه، وأن تُبِرَّ قَسَمة، وأن تطيع أموره، وأن لا تخرج إلا بإذنه، وأن لا تُدخِل عليه من يكره»**[2].

أما حين تنقلب القيادة لتكون بيد المرأة فإن البيت يختل توازنه لهيمنة المرأة على الرجل، فيهزل الأب بنظر زوجته وأولاده، ولا تكون له كلمة مسموعة في التوجيه والنصح، إضافة إلى عدم أهليتها للقيادة: (هلكت الرجال حين أطاعت النساء)[3]، إضافة إلى تمرّد الأولاد، لا سيما الصغار عن طاعته. وهذا

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم واللالكائي والطبراني.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، والروياني في مسنده.

(٣) رواه أحمد، والحاكم، وصححه، والبزار، والطبراني في المعجم الأوسط.

الحديث لا يعني إلغاء عقل المرأة ورأيها لدى الزوج، ولكنه يقصد الطاعة المطلقة الدائمة التي تتحكم بها في قيادة الرجال حينئذ تنقلب العبادة إلى وزر وضياع للأسرة التي يريدها الله منقادة بحكمة إلى هديه، لا إلى الأهواء والعواطف.

٤ ـ و(المشاورة) في القيادة مشروعة، ومأمور بها: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[(١)]، تشمل الرجال والنساء، وهي سنّة إستنها رسول الله ﷺ حين شاور زوجه (أم سلمة) في الحديبية، واستجاب سيّد المرسلين لرأيها، حين قال لها: «**الرأي رأيك يا أم سَلَمة**»[(٢)]، حين أشارت عليه بنحر الهدي، فنحر الصحابة، وحُلّت أزمة العمرة. أما المقولة المشهورة: (شاوروهن وخالفوهن)، فذلك ليس بحديث ولا صحيح المعنى.

٥ ـ **المباشرة**: ومن معاني القوّامة التعبدية كذلك، أن بيده الهيمنة في أدق مسؤوليته إزاء زوجه، وهي (المباشرة)، إذ هو الفعال فيها، ولو لم يكن كذلك، لهجرته الزوجة إلى بيت أهلها، في الأيام الأولى من الزواج! وسيبقى الرجل قواماً على زوجه كذلك حتى نهاية حياته. تلك مسؤوليته الفطرية والواقعية كرجل، والتي ترتضيها الزوجة وتحبها فيه. وفي مباشرة الجنس الحلال عبادة، إضافة إلى السعادة النفسية كما مرّ بنا.

٦ ـ **القوامة تجاوب مع فطرتها**: إن المرأة ـ فطرياً ـ ترغب أن تلقي بزمامها بيد الزوج يقودها، وهي تأنس بذلك، وتحتقر من لا قدرة له على هذه القيادة، أو تنتقص من قدره، وتخجل

---

(١) الشورى: ٣٨.

(٢) أخرجه البخاري، في الحديبية.

أن تظهر أمام الناس، ولا سيما أمام النساء أنها هي القوّامة عليه!

فالقوامة التي حدّد بها الإسلام مسؤولية الرجل عليها، تتجاوب وفطرة النساء، كما تتجاوب مع فطرة الرجال، لذا فإن ممارستهم لها أصل مكين في فطرتيهما، تعينهما على تحقيقها، إذ الإسلام دين الفطرة الإنسانية الخالدة، التي لا تبديل لها، يقول الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾[1]، وما دامت المشاورة ركيزة من ركائز الأسرة المسلمة، فإن القيادة للزوجة وللأسرة بيد الرجل، إنما هي مشاورة مشتركة بينهما، فإن اختلفا فالرأي النهائي بعد المشاورة للرجل، شريطة أن لا يظهر الخلاف أمام الأولاد، لئلا يتضعضع مركز كل من الوالدين المتنازعين أمامهم.

ومن معنى (القوّامة) الواسع هذا، تتبيّن سعة آفاق العبادة التي يمارسها الزوج في مسؤوليته في القيام على خدمة الزوجة، وفي قيادته لها إلى سعادتها في أسرتها من خلال طاعتها وحبها له، وفي قيادته لها إلى جنة الخلد بحسن توجيهها إلى العبادة الحقة في الإسلام، يقول ربّ العالمين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾[2].

وحين اعتراف الزوجة بقوامة الرجل عليها وطاعتها له تضمن دخول الجنة، وعداً منه ﷺ: «**إذا صلت المرأة خمسها،**

---

(١) الروم: ٣٠.

(٢) التحريم: ٦.

وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها، دخلت الجنة»[1]، فهي في جنتين - جنة الدنيا وجنة الآخرة.

❀ ثالثاً: درجة الرجل على الزوجة:

وقد فسّر هذه الدرجة أنها حق الزوجة على زوجها في المباشرة، وهذا ما فسّره الإمام ابن القيم في قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ﴾، وقد فسّر هذه الآية بقوله: (إن الوطء داخل في معاشرتها بالمعروف، وقالوا: عليه أن يشبعها وطءاً، إذا أمكنه أن يشبعها قوتاً)[2].

وقال: (تنال الزوجة من اللذة كما ينال منها [هذا هو المعروف]، وله الفضل بنفقته).

وجميل ما ورد في تفسير الإمام الطبري عن معنى (الدرجة)، حين قوله: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ﴾، ومعنى الدرجة الرتبة والمنزلة، وظاهر النص الخبر، ومعناه: (ندب الرجال إلى الأخذ على النساء بالفضل، ليكون لهم عليهن الفضل والدرجة)[3].

ويروي الإمام القرطبي في تفسيره: «قال ابن عباس: الدرجة: إشارة إلى حضّ الرجال على حسن العشرة والتوسع

---

(١) أخرجه البزار عن أنس ﷺ، وأخرجه أحمد وابن حبان بلفظ: «..قيل لها: ادخلي الجنة من أي أبواب الجنة شئت».

(٢) الإمام ابن القيم في: (روضة المحبين) باختصار (١٢٤ ـ ١٢٦).

(٣) تفسير القرطبي ٢:٢٨٥.

للنساء في المال والخلق ـ أي أن الأفضل أن يتحامل على نفسه. قال ابن عطية: وهذا قول حسن بارع».

ويعلق صاحب كتاب (تحرير المرأة) على هذا تعليقاً جميلاً يفيض على المرأة إحساناً وتكريماً من الرجل: «إذا كان للقوامة فضل وشرف فهو فضل الرعاية الحانية وشرف تحمل المسؤولية، لا فضل للقيّم المقصر في رعايته، أو الغافل عن أعباء مسؤوليته»[1].

أما الإمام محمد عبده فله رأي آخر حكيم في معنى (الدرجة) في تفسيره للآية الكريمة ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾، فهو يوجب على المرأة شيئاً، وعلى الرجال أشياء. هي الرياسة التي ينصرف فيها المرؤوس بإرادته واختياره، وليس معناه أن يكون المرؤوس مقهوراً مسلوب الإرادة، لا يعمل عملاً إلا يوجهه إليه رئيسه. إن كون الشخص قيماً على آخر، هو عبارة عن إرشاده والمراقبة عليه في تنفيذ ما يرشد إليه ـ أي ملاحظته في أعماله وتربيته[2].

أما مفسرّو (الموسوعة القرآنية) فيرون أنها منزلة زائدة هي درجة (القوامة) بما فيها من إنفاق ومسؤوليات الحياة[3].

نخلص من آراء الأئمة المفسرين أعلاه، أن درجة الرجال على النساء في محكم كتاب الله تعني درجة فضلهم عليهن في

(١) تحرير المرأة في عصر الرسالة، عبدالحليم محمد أبو شقة ج٥.
(٢) المصدر السابق ج٥.
(٣) الموسوعة القرآنية الميسرة /٣٧.

أدب العشرة، وحسن التربية والقيادة، والإنفاق بالمال والطعام واللباس عليهن والمسكن والخدمة الحانية لهن، إذ هم كثيرو القيام على خدمتهن ورعايتهن، بما فضل الله الرجال على النساء بالقوة الجسدية والقدرة المالية، وأدب الرجولة في تعامله معهن.

أما رأي (سيد قطب) ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ في تفسيره في الظلال، فله رأي أدق مما ذكر سالفوه، وهو مرتبط بما قبل الدرجة في نفس الآية: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾[١].

وما قبلها يوحي بمعناها، من خلال السياق بحق الرجال في ردهن إلى عصمتهم في فترة العدّة، وجعل هذا الحق في يد الرجل، لأنه هو الذي طلّق، وليس من المعقول أن يطلّق هو، فيعطي حق المراجعة لها هي، فتذهب إليه! وتردّه إلى عصمتها!، فهو حق تفرضه طبيعة الموقف، وهي درجة مقيدة في هذا الموضع، وليست درجة مطلقة الدلالة، كما يفهمها الكثيرون، ويستشهدون بها في غير موضعها[٢].

ويرى الإمام القرطبي أن درجة الرجل على المرأة بسبب أنها خلقت من الرجل، فهو أصلها، وله أن يمنعها من التصرّف إلا بإذنه[٣].

---

(١) البقرة: ٢٢٨.

(٢) الظلال: ٢٤٦ ـ ٢٤٧.

(٣) القرطبي ١٠/٩.

والذي أرجحه في معنى (الدرجة)، وهو رأي المفسّر الشهيد (سيّد)، لدقة ربطها بما قبلها في السياق، ولدقة معناها، بما يتجاوب مع طبيعة الصلة بين الزوجين في مجال الطلاق، وتيسير إرجاع الزوجة إلى زوجها، وليست الدرجة مطلقة بمعنى الزيادة والاستعلاء على المرأة.

رابعاً: الإنفاق عبادة وسعادة:

تنتقل الزوجة من بيت أهلها إلى بيت زوجها، وهو غريب عنها في طباعه وعاداته وأفكاره ونمط حياته، فشبهها النبي الحكيم بالأسيرة عنده، في خطبته بحجة الوداع ـ «**ألا فاستوصوا بالنساء خيراً، فإنما هنّ عوانٌ عندكم، ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك** ـ أي: الاستمتاع ـ»[1]، لذا فعلى الزوج أن يشعرها بأنها عنده أعز مما كانت في بيت أهلها، وإلاّ لما انتقلت بالزواج إليه، فلا يقصّر بالإنفاق عليها، في مجالات الإنفاق، وهي: الطعام واللباس، ويوصي بذلك ﷺ: «**ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف**»[2]، وهذا الإنفاق من خصائص القوامة، كما مرّ بنا، ويؤكد النبي الكريم مسؤولية الرجل هذه في الإنفاق: «**ألا وحقهنّ عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن**»[3]، والإحسان في الكسوة والطعام: أحسنه.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم.

(٣) من خطبته ﷺ في حجة الوداع، أخرجه الترمذي وابن ماجه والنسائي في السنن الكبرى.

وكما يأكل الزوج ويلبس، فمن حقها عليه ذلك: «**حق المرأة على الزوج أن يطعمها إذا طعم، ويكسوها إذا اكتسى...**»[1]، وإن الزوج في حالة إنفاقه هو في عبادة، وهو مأجور أجرين ـ أجر الجهد الذي بذله في جمع المال لسدّ حاجة زوجه وأسرته، وأجر إسعادها بما أعطاها نقداً أو حاجة مشتراة، وفي رضا الله عنه بجهده، وفي إسعاد زوجه أحب الخلق إليه بسدّ حاجتها سعادة له أية سعادة!.

أما إن قصّر الزوج في هذا الإنفاق على زوجه وعلى أولاده، فهو آثم وموزور، ومن حق الزوج أن تأخذ منه ما يكفيها وأولادها. شكت هند زوجة أبي سفيان زوجها إلى رسول الله ﷺ، بأنه شحيح لا يعطيها ما يكفيها وأولادها، فأجابها: «**خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف**»[2].

❁ خامساً: مساعدتها في شؤون بيتها عبادة وسعادة:

إن الزوجة تأنس بزوجها حين يشاركها في أعمالها في البيت، سواء أكانت مرهقة بالعمل، أم لمجرد المشاركة والإيناس، فتفرح أن يكون هو بجوارها، ويشاركها جهدها، كما أنها شريكة حياته، ومهوى فؤاده.

(سئلت أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها): ماذا يعمل رسول الله ﷺ في بيته؟ فأجابت: كما تعمل إحدانا)[3]،

(1) أخرجه الحاكم وابن ماجه وابن حبان والطبراني.
(2) أخرجه البخاري ومسلم ـ اللؤلؤ والمرجان ١٩٣/٢.
(3) أخرجه البخاري.

صلى الله عليك وسلم يا سيد الكونين، ويا إمام المتواضعين، ويا أحنّ قلب! هكذا تسهم مع زوجك في إعداد الطعام، لا كما يصنع الكثيرون في أنهم الأسياد الآمرون، فإن تأخّر الطعام عن موعده حلّت الكارثة بالزوجة! أيّ تواضع هذا، وأيّ عون للزوج في منزلها!! علماً بأن (عائشة) (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) وجميع أزواجه ليس معهن أولاد، ولا أعمال مرهقة، وبيوتهن فارغة من رياش وطعام، ولكن مشاركتهن لإيناسهن وكسب الثواب بهن، هكذا عبادة المصطفى ﷺ مع أهله! سعادة لهم جميعاً.

وحين سئلت عائشة (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) مرة أخرى عن عمله ﷺ في البيت، أجابت: (كان ﷺ يخصف نعله ويخيط ثوبه، ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم في بيته، ويخصف نعال الأيتام)[1].

لذا فإن كل زوج مسلم في بيته هو في عبادة، من خلال مشاركته زوجه للعون أو للأنس والمتعة لها، وتأسيّاً بسلوك النبي الحكيم في بيته، وفي كلا الحالين مأجور، أما إن كان جباراً مستبداً بها، فإنه موزور وآثم، بمعصية الله في عدم طاعته لوصاياه بها، ولإساءته في التعامل معها، وإغضابها ظلماً واستعلاء.

❁ سادساً: أدب التعامل مع الزوجة عبادة وسعادة:

الزوجة حين انتقالها إلى عشّ الزوجية، صارت ضيفة عند الزوج: (والضيف أمير على أهل الدار)[2]، فهي (ضيفة العمر،

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، وأحمد وابن حبان والبيهقي وعبد بن حُميد، كلهم دون قوله: «ويخصف نعال الأيتام» فلم أعثر عليها.

(٢) كما في الأثر.

والأميرة عنده)، هكذا ينظر الإسلام إلى مقام الزوجة الصالحة في قلب الرجل المسلم.

من ذلك يتبيّن أن أفضل الأزواج إيماناً أحسنهم سلوكاً مع زوجته: **«خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»**[1]، لأن ميزان الإيمان في الزواج هو أدب التعامل مع الزوج: **«أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وألطفهم لزوجه»**[2].

وعلى الزوج أن يعيّ بعقل وحكمة نفسية المرأة وشعورها، حين التعامل معها، وعليه كذلك الحذر من وقوع المشكلات، ثم علاجها، إذ أن: **«درهم وقاية خير من قنطار علاج»**، وليعلم أن سلوكه مع زوجته إنما هو عبادة، فليسلك ما يوصيه به ربه، وليحسن عبادته بها، ويتقي الله فيها.

ومن الوصايا الإسلامية في الاهتمام البالغ بالزوجة - بل بالأسرة - إشفاق الزوج عليهم من عذاب الله بالتربية الإسلامية لهم، قال عزّ من قائل: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾[3].

❀ سابعاً: المرونة في إصلاح الزوجة:

إن التعامل معها يجب أن يكون بكيفية مختلفة عن التعامل

---

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه والدارمي وابن حبان والبيهقي في السنن الكبرى والطبراني في الأوسط، والبزار في مسنده.
(٢) أخرجه الترمذي والحاكم.
(٣) الطور: ٢٦ ـ ٢٨.

مع الرجال، إذ المرأة غير الرجل، والنبيّ الحكيم يوصينا كيف نتعبد الله تعالى بأسلوب خاص معها، إذ كثيراً ما يغفل عنه الأزواج: **«استوصوا بالنساء خيراً، فإن المرأة خلقت من ضِلع أعوج، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً»**[1].

وفي وصية النبي ﷺ للإمام علي ؓ في خطبته لفاطمة ؓ: **«هي لك على أن تحسن صحبتها»**[2]، إذ أن حسن صحبتها عبادة وسعادة.

إن أيّ نقد للمرأة على أي شيء مهما صَغُر، إما أن تدافع عن نفسها، وكأنه اتهام، وإما أن ترسل دموعها، وإما أن تكتم ما في نفسها غيظاً وألماً، والمتزوجون العقلاء يدركون ذلك، إذ هي تنكسر بين يدي الرجل كالقارورة، والمسلم منهيّ عن أي نقد يكسر به القارورة!، إذن كيف التفاهم في حل المشكلات واستمرار الحب، بل التسامي به؟ بل كيف يتعبد الزوج ربه في ظروف المشكلات مع زوجته؟!

على الزوج أولاً أن يوضح لها آراءه في تصور الأمور، ويعلل عاداته، ويكشف لها طبعه وما ألفه من أسلوب تفكير وكلام ودعابة وطعام وشراب وتنظيم للبيت وزينة وملبس وزِي له

---

(١) في ضعف المرأة وقدرتها في وقت واحد قول الشاعر:

هي الضلع العوجاء، لست تقيمها ... ألا إن تقويم الضلوع انكسارها

أيجمعن ضعفاً واقتداراً على الفتى ... أليس عجيباً ضعفها واقتدارها؟

تحفة العروس ـ الهامش/ ١٧١ لأحد الشعراء.

(٢) سبق تخريجه.

ولزوجته، . . . لتكون هي على بيّنةٍ من أمره، وفي هذا عبادة، لأنه طريق الإلفة والوئام الذي يوصي به الله الزوجين.

ثم عليه أن يكون قدوة لها في تمثيل ما ذكره نظرياً وفي السلوك وفي هذا السلوك المرضيّ عبادة وسرور.

وعليه كذلك إن يفهم منها رأيها عن نفسها، ورأيها في كل ما عرضه عن نفسه، وفي هذا عبادة وسعادة لأنه وسيلة الانسجام والوفاق الذي يأمر به الله، كما عليه أن يظهر لها التقارب، بل التطابق بين رأي الاثنين، بفذلكة جميلة، حتى وإن وُجِد بعض الاختلاف، فإن لم يتفقا على الحل، فعليه أن يضع معها الثوابت المشتركة، ليعملا سوياً بها، ويعذرا بعضهما في المختلف فيه، ويتركا أمره للمستقبل، وقد يزول تدريجياً، إذ أن إظهار مشاعر الحب المستمرّ والرحمة الكامنة في نفسيهما يزيلا الخلاف.

فإن حصلت المشكلات، ولا بدّ لها أن تقع، فعلى الزوج واسع الأفق ألاّ يعظِّمها ولا يوسع من رقعتها، إذ الأخطاء واردة، وكل إنسان يقع بها: **«كل بني آدم خطّاء، وخير الخطّائين التوابون»**[1]، وعليه أن يحسن الظن بزوجته، ولا يسيء الظن بها من خلال أخطائها، إذ أن ذلك هدم للحياة الزوجية: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾[2]، أي: هالكين.

فإن تكررت الأخطاء منها، فليلتمس لها الأعذار، لئلا تخجل منها: «التمسوا لأخيكم العذر، ولو لسبعين، فإن لم

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه.

(٢) الفتح: ١٢.

تجدوا له عذراً فقولوا: لعل له عذراً لا نعلمه»[1]، هذا مع الأخ، فكيف بالزوجة، أحبَّ الناس إلى قلب الرجل! والتماس العذر إلى حدّ السبعين، وبعد السبعين خطأة، إن لم نجد عذراً علينا أن نتهم أنفسنا بالجهل عن السبب، ونكرر التماسنا العذر لها.

فإن صدر الخطأ معصيةً، فقد عصى آدم ربه من قبل، وعفا عنه: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾[2]، إن الله عفا عن أبي البشر، ألا نعفو نحن عن زوجنا.

وإن تكرر فلنقابل الإساءة بالإحسان، إذ أنه يخجلها: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾[3]، وعلينا في تعاملنا مع زوجنا كثيرة الأخطاء، أن نقف إزاءها موقف المربي وليس النِدّ للند ولا الناقد ولا المنتقم، وذلك بالعفو: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[4].

ولنذكر في تعاملنا الوفاء بيننا، وقد أفضى بعضنا إلى بعض، في متعتنا الجنسية مع بعضنا، وبيننا الميثاق المقدس - ميثاق الزواج الغليظ: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾[5].

---

(١) ليس بحديث، بل هو من كلام جعفر بن محمد الصادق، أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، وأخرجه بلفظ آخر، دون قوله: «ولو لسبعين»، أبو نعيم في حلية الأولياء، من قول أبي قلابة.

(٢) طه: ١٢١، ١٢٢.

(٣) القصص: ٥٤.

(٤) النور: ٢٢.

(٥) النساء: ٢١.

ومعنى ﴿أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ﴾، غاية في جمال اللقاء بين الزوجين، حينما يكونان مع بعضهما، وكأنهما في فضاء منعزل عن الناس، وهما في حرية مطلقة لا يقيدها إلا معصية الله! يتصرفان مع بعضهما في هذا الفضاء، بما يشبع رغباتهما مع بعضهما وبما يؤنس بعضهما الآخر!! هكذا الميثاق الغليظ مع الله في العلاقة الجنسية، وهكذا يربط الإسلام المتعة الجنسية بين الزوجين بميثاق العبادة الغليظ بينهما!! لتشبع السعادة الحقيقية بينهما.

لذا يذكرنا الله تعالى بقوله: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ﴾[(1)]، إذ لكل منهما فضل على الآخر، وكل منهما ستر ولباس له: ﴿هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ﴾[(2)]، وقدم الله فضل المرأة على الرجل، إذ بدأ بلباسها له!! لباس العفة.

❁ ثامناً: حبّ الزوج لزوجته يفتح له أبواب العبادة والسعادة:

إن هذا الحبّ فطري، وهو أقوى رباط يربط بين الزوجين، بعد رباط العقيدة في إكرام الزوجة بقوله تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[(3)]،

---

(١) البقرة: ٢٣٧.
(٢) البقرة: ١٨٧.
(٣) الروم: ٢١.

فالمودة مغروسة في الزوج والزوجة منذ التقائهما وهي مستمرة فيهما، إضافة إلى الرحمة. فالحب دافع إيجابي، والرحمة دافع وقائي، يقي الزوجين من الاعتداء على بعضهما، أو الإساءة إليهما: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾[1]!

ففي حب الزوج ورحمته لزوجته استجابة عاطفية لنداء الفطرة، التي أودعها الله تعالى الخالق العليم فيهما، واستجابة واعية لأوامر الله تعالى في كتابه وسنة نبيه ﷺ وفي كلا الاستجابتين عبادة وأجر ومثوبة، إضافة إلى دوام السعادة التي يريدها الله لهما.

وعلى الزوج أن يدرك أن أعزّ ما تتمناه الزوجة هو حبّ الزوج لها، إذ هو جنتها، وهو أمنية العمر، وهو دعاؤها الخاشع مع ربها، بل هو حياتها، إن فقدت حبه فقدت كل شيء في دنياها، وإن كسبته ربحت كل شيء، لذا فإن إشعارها بالحب - صدقاً أو كذباً عبادة، لأنه سرّ الحياة الزوجية. يوصي النبي ﷺ به: «**لا جناح عليك** - يعني في الكذب على الزوجة اضطراراً، - **تطييباً لنفسها**»[2].

ومن أبواب العبادة التي فتحها الزواج في الإسلام في مجال الحبّ بين الزوجين أن يتزين كلّ منهما للآخر، شدّاً لأواصر هذا الحب بينهما، الذي أودعه فيهما وأوصاهما به، يقول ابن عباس رضي الله عنه: (إني أتزين لزوجتي، كما تتزين لي)، وذلك تعبّد

(١) الملك: ١٤.

(٢) الموطأ لمالك، ومسند الحميدي.

بنية امتثال قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[(١)].

ولأبي الدرداء قصة طريفة توضح أن انشغال الزوج عن زوجته بالعبادة ينفرها عنه. سأل سلمان ﷺ أم الدرداء، حين رآها مبتذلة، لابسة ثياب المهنة من غير زينة. قالت: إن أخاك أبا الدرداء يقوم الليل ويصوم النهار، ليس له في شيء من الدنيا حاجة.

فلما جاء أبو الدرداء رحب به سلمان وقرب إليه الطعام، فقال سلمان: أطعم، فقال: إني صائم. قال: أقسمت عليك لتفطرنّ. ما أنا بآكل حتى تأكل، فأكل معه، ثم بات عنده، فقام أبو الدرداء ليقوم الليل فمنعه سلمان، وتكرر ذلك مراراً، ثم قال سلمان: (إن لجسدك عليك حقاً، وإن لأهلك عليك حقاً، صم وأفطر، وصَلِّ، وأْتِ أهلك، وأعط كل ذي حق حقه، ثم أخبر سلمان رسول الله ﷺ بذلك فقال ﷺ: **«يا أبا الدرداء، إن لجسدك عليك حقاً»**، . . . مثل ما قال سلمان، صدق سلمان)[(٢)].

وعليه أن يتعبّد معها بالهدية، والطيّب أحب الهدايا بينهما: **«حُبّب إليّ من دنياكم ثلاث: النساء والطيّب، وكانت قرة عيني في الصلاة»**[(٣)]، ويؤكد ﷺ التهادي **«تهادوا، فإن الهدية تذهب الضغائن»**[(٤)]، ويؤكد على العطر: **«من عُرِض عليه ريحان فلا**

---

(١) البقرة: ٢٢٨.

(٢) أخرجه البخاري والترمذي.

(٣) متفق عليه، والترمذي.

(٤) معجم الشيوخ، لابن جميع الفيداوي.

يرده، فإنه خفيف المحمل طيب الريح»[1]، و(كان ﷺ لا يرد الطيب)[2].

والإسلام تجاوب مع الفطرة، هو يديمها ويغذّيها، ويسمو بها، ويصعد هذا الحب إلى أسمى منزلته عند نبيّ الحب والرحمة، ليرقى إلى أعلى درجة في قلبه بحبّ زوجه، ويعلنها ﷺ على الملأ، بل يباهي بهذا الحبّ العفّ الحلال المقدّس، ليكون أسوة للأزواج في حب أهليهم. (سأل عمرو بن العاص رسول الله ﷺ: أيّ الناس أحبّ إليك؟ قال ﷺ: «**عائشة!**» فكأنّ السائل الحييّ والصحابي الجليل عمرو بن العاص ﷺ، تحرّج من هذا الجواب حياء، فقال: ما قصدنا النساء! فقال ﷺ: «**أبوها**»، قال: ثم مَن؟ قال: «**عمر بن الخطاب**»، ثم عدد رجالاً...)[3].

ولم يقل ﷺ أبو بكر ولا الصدّيق، وإنما نسبه إلى زوجه: (أبوها)، زيادة في تكريمها! وإن هذا الحب بين الزوج وزوجته الذي يسمو على أي حبّ مع الناس، إنما هو الذي يقيم سعادتهما في البيت، ويحيله إلى جنة، العبادة فيه خاشعة، من غير ما يزعجها بمشكلات ومعاكسات ومنغصات من قبل الزوجين، ولهذه العبادة الخاشعة سعادة في القلوب وتعاون، بل تفان في بناء الأسرة بانشراح صدر واطمئنان قلب، وثمرتها الختامية رضوان الله والجنة.

---

(١) أخرجه مسلم.
(٢) أخرجه البخاري والترمذي وأحمد.
(٣) أخرجه البخاري ومسلم، اللؤلؤ والمرجان ١٢٤/٣.

❀ تاسعاً: وفاء الزوج لزوجته عبادة وسعادة:

الزوجة الصالحة، نعمة، وأية نعمة، هي نعمة الدنيا، وهي يوم القيامة أجمل من الحور العين، كما حدث به المصطفى ﷺ، وهي تسعد زوجها بحبها له وطاعتها، وبنفسيتها المرحة التي تزيح عنه هموم الدنيا، وهي شريكة حياته ومهوى فؤاده وكاتمة أسراره وأمينة أمواله، ومؤنسة في ليله ونهاره، ثم هي تشقى بسببه، بالأولاد - حملهم ووضعهم وفصالهم، تباعاً، واحداً بعد آخر إضافة إلى تربيتهم، وهم زهرة الدنيا لهما، وحياتها كلها سهر ونصب لهم، ولما يديمهم من خدمة، من طعام وشراب ولباس ونظافة وتنظيم بيت، واستقبال الضيوف والأقارب، وهي مدرسة الأجيال، تخرّج المعلمين والأطباء والمهندسين كما تخرّج الدعاة والمجاهدين، بإعداد الجو الهادىء لهم في البيت، وإزاحة العقبات أمامهم، وبناء ثقافتهم الأساسية في صباهم، وطبع خصالها قدوة لهم ديناً وأدباً وسلوكاً، ثم هي ساعد الرجل وظهره في مواجهة الحياة، فليذكر الزوج ذلك، ولا يغفل عنها وفاءً وتكريماً: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ﴾[1]. والوفاء معها في الحياة الدنيا وحين ترحل عنه، ومن أجلّ ما قرأت في الوفاء للزوجة بعد موتها ما يأتي:

لا لوعتي تدع الفؤاد ولا يدي	تقوى على ردِّ الحبيب العادي
يا دهرُ فيمَ فجيعتي بجليلة	كانت خلاصة عدّتي وعتادي
إن كنت لا ترحم ضناي لبعدها	أفلا رحمت من الأسى أولادي!
ومن البلية أن يسام أخو الأسى	رغم التجلد، وهو غير جماد

---

(١) البقرة: ٢٣٧.

هيهات بعدكِ أن تقرّ جوانحي ... أسفاً لبعدكِ أو يلين مهادي
ولهي عليك مصاحب لمسيرتي ... والدمع فيك ملازم لوسادي
فإذا انتبهتُ فأنت أول ذكرتي ... وإذا أويت فأنت آخر زادي[(١)]

ثم يعود فيستسلم لقدر الله الذي لا مرد له:

كلُّ امرىءٍ يوماً ملاقٍ ربّه ... والناس في الدنيا على ميعادِ

وقول الآخر[(٢)]:

إذا متّ فادفنيّ حذاء حليلتي ... يخالط عظمي في التراب عظامها
ولا تدفننيّ في البقيع، فإنني ... أريد إلى يوم الحساب التزامها
ورتّب ضريحي، كيفما شاءه الهوى ... تكون أمامي أو أكون أمامها
لعلّ إله العرش يجير صدعتي ... فيعلي مقامي عنده ومقامها

ولقد اشتهر من الشعراء الراثين لزوجاتهم جرير، وقد أنشد بعد موت زوجته قصيدة رقيقة جاء فيها:

لولا الحياءُ لها جنى استعبار[(٣)] ... ولَزرتُ قبرك والحبيبُ يُزارُ
وَلَهتِ قلبي، إذ علتني حسْرةٌ ... وذَوُو التمائم[(٤)] من بنيكِ صغارُ

---

(١) محمود سامي البارودي، العصور المتأخرة والقارة الهندية ٦٦/ ـ المؤلف، وتحفة العروس ١٧٣/ ـ ١٧٤.

(٢) لسان الدين بن الخطيب ـ موسوعة الأدب الإسلامي وتاريخه في عصوره ـ العصر الأندلسي ٨٥/المؤلف.

(٣) استعبار: بكاء وحزن.

(٤) ذوو التمائم: الأطفال الصغار، والتميمة أو العوذة: تعلق في عنق الولد بزعم دفع الأخطار عنه، وهذا شرك لقوله ﷺ في الحديث الصحيح: «التمائم شرك».

صَلّى الملائكة الذين تخيَّروا والطيبون عليك والأبرارُ
لا يلبث القرناءُ[1] أن يتفرقوا ليلٌ يَكُرُّ عليهم ونهار

وأنشد الطغرائي يرثي زوجته:

إن ساغ بعدَكَ لي ماءٌ على ظمأٍ فلا تجرَّعتُ غير الصاب والصبر
وإن نظرتُ من الدنيا إلى حسن مذ غبت عني فلا مُتِّعتُ بالنظر
صحبتني والشبابُ الغضُّ ثم مضى كما مضتَ، فما في العيش من وطر
سبقتماني ولو خُيِّرت بعدكما لكنتُ أوّل لحاق على الأثرِ

قال أبو جعفر البغدادي: كان لنا جار، وكانت له جارية جميلة، وكان شديد المحبة لها، فماتت، فوجد عليها وجداً شديداً، فبينما هو ذات ليلة نائم، إذ أتته الجارية في نومه، فأنشد هذه الأبيات:

جاءت تزور وسادي بعدما دُفنت في النوم ألثمُ خداً زانه الجيدُ
فقلتُ قُرَّةَ عيني قد نُعيتِ لنا فكيف ذا وطريقُ القبر مسدودُ؟
قالت: هناك عظامي فيه ملحدةٌ ينهش منها هوامُ الأرض والدود
وهذه النفسُ قد جاءتك زائرةً فاقبل زيارة منَ في القبر ملحودُ

فانتبه وقد حفظها، وكان يحدث الناس بذلك، فما بقي بعدها إلا أياماً يسيرة حتى مات ولحق بها!

وقول الآخر:

من نصف قرن ونيّف قد أنستُ بها في خير عيش، فلا هَمّ ولا كدِرُ

(١) القرناء: الأصحاب.

إذا طغى الخطبُ واسودّت نوازلهُ تبسّمت، فتجلّى ليلُه العكرُ
كانت ضماد جروحي، وهي دامية هي الحياة، هي الدنيا، هي العمر
يا نفحةً من جناب الله طيّبة مسكية العُرف يزكو عرفها العطر
قدسية الروح، أطهار عوائقها لم يُثْنِ من عزمها سقمُ ولا كبرُ
طَهُر الضميرُ فلا غِلٌ ولا حسد عفّ اللسانِ، فلا لغوٌ ولا هذْرُ
آباؤها الطهر أحيا في ضمائرنا كأنما القوم ماتوا ولا قبروا
لما توارت وحلت في مضاجعهم ضاءت بهم وتسامت فيهم الحُفَرُ
كانت مثالاً من التقوى لها صلة بالله، أخلاقها (القرآن) تزدهر
هالُوا التراب عليها، وهي نيِّرة كالشمس تحت سحاب الأفق تستتر

* * *

يا ربّة البيت، يا مشكاةً بهجته العيشُ بعدكِ مُرٌّ كله صَبْرُ
في كل زاوية منكِ به أثر إذا مررتُ عليه يبكي لي الأثر
كانت لنا فيه أوطارٌ تعللنا باختفائك عنه انتهى الوطر
تسودّ في عيني الدنيا إذا خطرت كأنما الكون، لا شمس ولا قمر

* * *

بكَت (أريان)[١]، وانهالت مدامعها وكاد يبكيك من جدرانها الحجر
وناح (ريمان)[٢]، واهتزت جوانبه وكاد للهولِ والمأساة ينفطر
عِشنا عليه زماناً في شبيبتنا والدهر سلمٌ، فلا خوف ولا خطر
كأن ساحاته العليا لنا حرم لا لهوَ في عيشنا فيها ولا بطر

---

(١) موطن الشاعر.
(٢) حصن منيع قريب من أريان، عاش الشاعر فيه شبابه.

ما زلت أذكرُ فيها خطوَنا وأنا وأنتِ نحبو إلى أن عاقنا الكبر
أصداءُ أقدامنا فيها لها نَغَمٌ وخطونا لم يزل فيها له أثر
ست وخمسون عاماً كلها سفر ألقيتِ فيها عصاكِ وانتهى السفر
أما أنا فعصا الترحال تدفعني للخطو في الدرب، مرسومٌ بها القدرُ

* * *

ماذا وراء الموت، ما سرّ الحياة فقد تاهت بأسرارها الألباب والفكر
ماذا ترين وراء الموت، هل كُشفت لكِ الحقيقة عما تحجب السُتُرُ
جحافل الموت تمضي، وهي مسرعة فيها العظات، وفيها للورى عِبرُ
ورقدة الموت طيّ القبر دائمة لا صحوَ فيها، ولا نومٌ ولا سهرُ
لا أمسَ فيها بذاكرة يحركها ولا غدٌ بأمانيه له أثر
إن الحياة، وإن طالت لها أمد إليه ينتهي الترحالُ والسفرُ
استقبلتك من الرحمن رحمته دامت عليك إلى أن يحشر البشرُ
صلى الإله على قبر نزلتِ به ما طاف بالبيت أقوامٌ وما اعتمروا(١)

ومن الوفاء للزوجة بعد وفاتها إكرام صديقاتها.

ومن ذلك أمر الرسول ﷺ بإكرام صديقات زوجته المتوفاة خديجة رضي الله عنها: «أكرموهن، فإنهنَ كنّ يأتيننا أيام خديجة»(٢)، روت عائشة رضي الله عنها أن عجوزاً جاءت إلى النبي ﷺ، فقال لها: «من أنت؟»، قالت: جبانة المزنية، قال ﷺ: «أنت حسانة، كيف

(١) محمد يحيى الأرياني، تحفة العروس /٤٦٧ ـ ٤٦٩.
(٢) أخرجه الحاكم وهو صحيح على شرط الشيخين.

حالكم؟ وكيف كنتم بعدنا؟»، قالت: بخير، بأبي أنت وأمي. فلما خرجت قالت عائشة: يا رسول الله! تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال! قال ﷺ: **«إنها كانت تأتينا زمن خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان»**[1]. وكان ﷺ يمتدح خديجة، فيقول: **«خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة، وأشار إلى السماء والأرض»**[2]. (جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، هل من بِرّ والديّ من بعد موتهما شيء أبرهما به؟ قال: **«نعم، الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما بعدهما، وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التي لا رحم لك من قبلهما، فهذا الذي بقي عليك»**)[3].

❋ عاشراً: الكره وزر وهدم للحياة الزوجية، وعلاجه:

ومع أن الحبّ أقوى دعائم الزواج، فقد يحدث نقيضه في الحياة الزوجية، وهو أقوى عوامل الهدم له، فعلى المسلم أن يبحث في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وسير السلف الصالح ما يتعبّد الله تعالى به في اتقاء هذا الكره ثم علاجه، الذي هو أخطر هادم للأسرة، وغالباً ما ينتهي إمّا إلى الشقاء والنزاع، وإما إلى الفراق بالطلاق!

وعلى كلا الزوجين أن يحرص على دوام الحب بينهما، فلا يخدشه:

---

(١) أخرجه الحاكم وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي في تحفة العروس/ ١٩٤.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، وأبو داود وابن ماجه، وابن حبان والحاكم وأحمد.

فاحرص على حفظ القلوب من الأذى فرجوعها بعد التفرّق يصعبُ
إن القلوب إذا تنافر ودّها مثل الزجاجة كسرها لا يُشعَب

وعلى الزوج أن يمسك لسانه عن إيذاء زوجته: **«كفّ عليك هذا»**[1].

جراحات السنان لها التئام ولا يلتام ما جرح اللسان!

كما عليهما أن يتراضيا في حالة الغضب، قال أبو الدرداء لامرأته: (إذا رأيتني غضبتُ فرضّيني، وإذا رأيتك غضبتي رضيّتك، وإلا لم نصطحب).

خذ العفوَ مِنيّ تستديمي مودتي ولا تنطقي في سودتي حين أغضبُ
ولا تنقُريني نقرَكِ الدفَّ مرّةً فإنك لا تدرين كيف المغيّبُ
ولا تكثري الشكوى، فتذهبَ بالقوى ويأباك قلبي، والقلوب تُقلّبُ
فإني رأيتُ الحبّ في القلب والأذى إذا اجتمعا لم يلبث الحبّ يذهبُ[2]

أما صاحب الدين فالتقوى تعصمه حين البغض لزوجته من إلحاق الأذى بها، وكان الإمام الحسن البصري ﷺ يقول: (زوج ابنتك صاحب الدين، فإن أحبّها أكرمها، وإن أبغضها لم يظلمها)[3].

(١) أخرجه الترمذي والنسائي في السنن الكبرى وأحمد.
(٢) تحفة العروس /٨٥.
(٣) عيون الأخبار /٧٤ وتنسب فيه إلى الفاروق ﷺ، وفي تحفة العروس/ ١٦٦ إلى الإمام الحسن البصري.

❁ ١ ـ أسباب الكره:

معرفتها عبادة، لأنها طريق إزالة الضرر عن الزوجة وفيها أجر ومثوبة. ولا بد أن يعرف الزوجان الأسباب، لا سيما الزوج، إذ هو القوام، وبيده الزمام، وتفهمها ومراجعتها - عبادة، ودراسة حلولها بينه وبينها، ومع نفسه، بنيّة الوصول إلى حلّ، عبادة وسعادة، يقول الله ﷻ: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾[1]، ذلك بين الناس، فكيف بين الزوجين! والله تعالى يدعو إلى الصلح، والاستجابة إلى دعوته ﷻ عبادة: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾[2].

❁ ومن أسبابه:

اختلاف العقول في فهم الواقع وعلاجه واختلاف المشارب والأهواء، وتباين النفوس في فهم العبادة المرضية وفهم السعادة وفهم غايتها وفهم غاية الحياة، واختلاف وجهات النظر في التوفيق بين الحضارة الإسلامية والغربية، وكثرة محاسبة الزوجة في أعمالها، وتزاحم المشكلات واستمرارها عليها، بسبب ظروف البيت المتعبة، أو متاعب الأطفال وخدمتهم، لا سيما حين يكثرون، من طعام ولباس وغسيل ونظافة ومشكلاتهم المنزلية وتربيتهم وتنظيم المنزل وحقوق الزوج وخدمته، مع حصر

---

(١) النساء: ١١٤.
(٢) النساء: ١٢٨.

للزوجة في البيت من غير تنفيس ولا راحة ولا شكر لها ولا مكافأة ولا عون.

ومن أسباب إهمال كل من الزوجين جسده ومظهره، قال ابن عباس ﷺ: «إني لأتزين لامرأتي كما تتزين لي، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾». دخل على الخليفة عمر ﷺ زوج أشعث أغبر، ومعه امرأته، وهي تقول: لا أنا ولا هذا يا أمير المؤمنين، أي خلصني منه، فعرف كراهية المرأة لزوجها، فأرسل الزوج ليستحم، ويأخذ من شعر رأسه، ويقلم أظافره، فلما حضره أمره أن يتقدم من زوجته، فاستغربته ونفرت منه، ثم عرفته فقبلته ورجعت عن دعواها. فقال عمر ﷺ: فاصنعوا لهن، فوالله إنهن ليحببن أن تتزينوا لهن، كما تحبون أن يتزين لكم.

ومن أسباب الكره شحّ الزوج بالإنفاق عليها، كما مرّ لأبي سفيان مع زوجه هند. وهذا كله تقصير من الزوج، ووزر وإثم، تهزل العبادة فيه وتشقى فيه النفس.

وقد يكون السبب من الزوجة لطلباتها المرهقة على زوجها، وعجزه عن التنفيذ، ويضرب الرسول الحكيم ﷺ مثلاً لهلاك بني إسرائيل، تكليف النساء أزواجهن فوق ما يقدرون عليه من الإنفاق: «**إن أول ما هلك بنو إسرائيل أن امرأة الفقير كانت تكلفه من الثياب والصبغ ما تكلف امرأة الغني**»[(١)].

فعلى الزوجة ألاّ تسرف في الطلب وفي الإنفاق، بما يسبب نفور الرجل وبغضه، ويحمله على القلق والحزن بما يضعف عباداته ويهدم أسرته.

---

(١) حديث نبوي لم أجد له تخريجاً.

وقد يكون السبب إصرارها على أخطائها، وعلى طبعها الذي اعتادته في حياتها السابقة، بما يناقض ما يألفه الزوج، أو بسبب كسلها عن أداء واجبها في الأسرة والبيت، وظهور التقصير واضحاً بما يعثّر أسباب الحياة الطبيعية في البيت، أو كسلها عن خدمة زوجها، أو مشاكستها لأهل الزوج وأمه وأقربائه.

فما لم يتق الله كل منهما في التقارب، والبعد عن الهوى فإن الشقّة ستتسع، وعبث الشيطان بينهما خطير! ما لم يرجعا إلى الله، فحين يشعران أن حياتهما عبادة، عليهما أن يطيعا الله تعالى في حياتهما مع بعضهما حينئذٍ، تزول المشكلات، وإن ينظراها شهوة ومصلحة، فإنها ستنهار، ولا إصلاح لها، إذ الهوى لا علاج له، لذا فإن الله تعالى يحذر منه: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾[1]؟!، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾[2].

۞ ٢ ـ العلاج:

على الزوج أن يلتزم بالحلم والأدب، ويبتعد عن الغضب، لذا أكدّ على اجتنابه رسول الله ﷺ: **«لا تغضب، لا تغضب، لا تغضب»**[3]، ووعد بالجنة للحليم: **«لا تغضب ولك الجنة»**[4]، ويلتزم دائماً بالصفح، لذا كان القرآن الكريم يذكّر بالعفو ويوصي

(١) الفرقان: ٤٣.
(٢) القصص: ٥٠.
(٣) أخرجه البخاري (فتح الباري بشرح صحيح البخاري).
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا والحسني بن سفيان والبغوي وأبو نعيم في الصحابة.

به كما يذكّر أبداً بالوفاء: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾[(١)].

وكان رسول الله ﷺ يؤنس أهله، وإن إيناس كل مؤمن أحب الأعمال إلى الله ﷻ: «**إن من أحب الأعمال إلى الله إدخال السرور على قلب المؤمن**»[(٢)]، هذا لعموم المؤمنين، فكيف بالزوجة؟! وقد تتعرض الأسرة المسلمة لمشكلات، سرعان ما تزول، وتحدث لكبار الصحابة، ومنهم علي ﷺ، إذ جاء **النبي ﷺ إلى بيت فاطمة ﷺ، فلم يجد علياً.**

فقال: «**أين ابن عمك؟**».

فقالت: **كان بيني وبينه شيء، فغاضبني فخرج.**

فقال النبي ﷺ: «**انظري أين هو؟**».

فقالت: **هو** في المسجد راقد.

فجاءه وهو مضطجع، وقد سقط رداؤه عن شقه فأصابه تراب، فجعل النبي ﷺ يقول: «**قم يا أبا تراب**»! قال سهل ـ راوي الحديث ـ: «**وما كان له اسم أحب إليه منه**»[(٣)].

ومن العلاج إيناسه أهله من ضيق البيت وأتعابه:

وكان ﷺ يؤنس أهله، بتشريعات سامية، ومنها:

أ ـ سماحه بالغناء في الأعياد في بيته الكريم:

---

(١) البقرة: **٢٣٧**.

(٢) أخرجه الطبراني وأبو الشيخ ابن حبان في طبقات المحدثين بأصفهان.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم.

تروي عائشة رضي الله عنها: (دخل أبو بكر رضي الله عنه، وعندي جاريتان من جواري الأنصار تغنيان، ... فقال أبو بكر رضي الله عنه: أمزامير الشيطان في بيت رسول الله ﷺ؟ وكان ذلك في يوم عيد - فقال ﷺ: **«يا أبا بكر، إن لكل قوم عيداً، وهذا عيدنا»**[1]، وفي رواية أخرى للبخاري: «فاضطجع رسول الله ﷺ على الفراش، وحوّل وجهه»)[2].

ب - إسهام زوجه معه في العيد بالنظر إلى لعب السودان (رقصهم بالدرق والحراب):

تروي عائشة رضي الله عنها: كان يوم عيد، يلعب فيه السودان بالدرق والحراب، فإما سألت النبي ﷺ وإما قال: **«تشتهين تنظرين»**؟ فقلت: نعم، فأقامني وراءه، خدّي على خدّه، وهو يقول: **«دونكم يا بني أرفدة»** - أي يشجعهم، حتى إذا مَلِلت قال: **«حسبك»**، قلت: نعم، قال: **«فاذهبي»**[3]. وفي رواية أخرى لهذا اللهو البريء الذي يهيئه الرسول الزوج المثالي لزوجه: تقول عائشة رضي الله عنها: (واللّهِ رأيت النبي ﷺ على باب حجرتي، والحبشة يلعبون بالحراب في المسجد، ورسول الله ﷺ قائم يسترني بردائه، لأنظر إلى لعبهم، فأضع رأسي على كتفه، بين أذنه وعاتقه، ثم يقوم من أجلي حتى أكون أنا التي أنصرف، فاقدروا قدر الجارية حديثة السن، الحريصة على اللهو)[4]، يقصد

---

(١) أخرجه البخاري، اللؤلؤ والمرجان /١٧١.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم.

(٣) أخرجه البخاري، اللؤلؤ والمرجان /١٧٢، وحين قرأت امرأة نصرانية هذا المشهد أسلمت لتكريمه ﷺ زوجته.

(٤) أخرجه البخاري ومسلم.

بها عائشة رضي الله عنها، حين يتعامل معها بما يتجاوب مع صغر سنها!.

ج ـ الرحلات القصيرة، ومداعبة الزوجة بفعاليات:

ومنها أن عائشة رضي الله عنها كانت مع رسول الله ﷺ في سفر، وهي جارية ـ أي صغيرة، قالت: لم أحمل اللحم، ولم أبدن، فقال لأصحابه: **«تقدموا، تقدموا، ثم قال: تعالي أسابقك»**، فسابقته فسبقته على رجليّ، فلما كان بعد، وفي رواية: فسكت عنيّ حتى إذا حملت اللحم وبدنت ونسيت، عزمت معه في سفر، فقال لأصحابه: **«تقدموا، تقدموا، ثم قال: تعالي أسابقك»**، ونسيت الذي كان، وقد حملت اللحم، فقلت: كيف أسابقك يا رسول الله، وأنا على هذه الحال؟! فقال ﷺ: **«التفعلِنّ»**، فسابقته فسبقني، فجعل يضحك، وقال: **«هذه بتلك»**[(١)].

وذلك تشريع لإيناس الرجال نساءهم من الضجر الذي قد يصيبهم من البيوت، وفي هذا الإيناس للزوجة عبادة وسعادة، ولئن كانت وسائل الترفيه محدودة، ولا مانع من إيناس أزواجنا بالحلال منها، وهي كثيرة اليوم، الوسائل منوعة، والمبدأ واحد.

د ـ الفكاهة وإشاعة جو المرح في البيت:

(ولقد كان في بيته ﷺ أفكه الناس)[(٢)].

ومن القصص الجميلة في هذا المجال، وهي تشريع لأمته،

---

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى، وابن حبان والحميدي.

(٢) سبق تخريجه.

ما حدث في بيت رسول الله ﷺ من حوار مؤنس بين عائشة ﵂، وهي بعمر خمس عشرة سنة، ورسول الله ﷺ بحكمته وسعة أفقه، إنه حوار بين طفلة وشيخ، مع نزوله ﷺ إلى عقلها وخيالها، وإشعارها باستحسانها فيما تقول: (قدم ﷺ من تبوك، أو حُنَين، وفي غرفتي ستر، فهبت الريح، فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة - لُعَب - فقال: **«ما هذه يا عائشة؟»** فقالت: بناتي!.

ورأى بينهن فرساً له جناحان من رقاع، فقال: ما هذا الذي أرى وسطهن؟ قلت: فرسي، قال ﷺ: **«وما الذي عليه»**، قلت: جناحان، قال ﷺ: **«فرس له جناحان؟!»** قلت: أما سمعت لسليمان خيلاً لها أجنحة! قلت: فضحك ﷺ، حتى رأيت نواجذه)[1]!.

وخلاصة العلاج للكره أن حياتهما عبادة تخضع لحكم الله ﷻ وإرضائه، حينئذ سيجدان الحلّ في هدى الله ورسوله ﷺ، يقول تعالى: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[2]، والخير من خلال الذرية التي تعوض عن الكره، وتملأ البيت مسرّة، وتقرب الشقة بين المتنازعين، كذلك فقد يجد الزوج إلى جوار ما يكره ما يسرّه فلا يترصّد العيوب، بل عليه تفقّد المحاسن وغض البصر عن العيوب البسيطة - الثانوية لا الجوهرية: **«لا يفرك[3] مؤمن مؤمنة، إن كره منها**

(١) أخرجه أبو داود والنسائي في السنن الكبرى.
(٢) النساء: ١٩.
(٣) بالبغض الذي يؤدي إلى الترك.

خلقاً، رضي منها بآخر»[1]، وقد شكا أحدهم زوجته إلى عمر رضي الله عنه، يريد طلاقها، بسبب كرهه لها، فتعجب منه كيف يحلّل الكُره الطلاق، فأوصاه بالعبادة الصادقة مع ربه وبتقوى الله في زوجته: «ألم تُبْنَ البيوت إلاّ على الحبّ، فأين الرعاية والذمم»[2]؟!

* * *

(1) أخرجه أحمد ومسلم.

(2) نظم الحياة في الإسلام/ ٢١٤ ـ المؤلف.

۞ المبحث الثاني:

تعبد الزوجة بسلوكها الإسلامي إزاء زوجها سعادة:

۞ أولاً: حبّ الزوجة لزوجها، عبادة وسعادة:

الزواج الإسلامي يحيل حبّ الزوجة لزوجها إلى عبادة مقدّسة: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾[1]، - أي: ميثاقاً قوياً على دوام الحياة الزوجية بما يرضي الله، والذي يديم الحياة الزوجية ويسعدها كما يريد الله هو الحب بل الود، وهو وعاء الحب وثمرته وفيضه، الذي غرسه الله تعالى فطرياً فيهما، وأوصى به.

فإن تحققت السعادة بينهما عن طريق الحب الموصول بحب الله، فالمتحابان في عبادة موصولة وسعادة هنيئة، ما داموا في ظلاله نابضة به العروق، والله تعالى يريده في حياتهما، يعيشان برحابه.

ولما كان لهذا الحب مقامه العزيز عند الله تعالى، وعند الزوجة المحبة لزوجها بأثمن جزاء وأسعده، ألا وهو (الجنة): **(ألا أخبركم برجالكم من الجنة؟ النبي في الجنة، والصدّيق في الجنة، والشهيد في الجنة، والمولود في الجنة، والرجل يزور أخاه لا يزوره إلا لله ﷻ، ونساؤكم من أهل الجنة: الودود الولود، العؤود على زوجها، التي إذا غضب جاءت حتى تضع يديها في يد زوجها، وتقول: لا أذوق غمضاً حتى ترضى)**[2].

---

(١) النساء: ٢١.

(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرى، والطبراني في المعجم الكبير، والبيهقي في شعب الإيمان.

ذلك أن هذه الزوجة الودود ـ كثيرة الود لزوجها ـ لا يغمض لها جَفن، إذا غضب عليها حتى تضع يديها في يده، وتستميحه العفو والرضى، والعودة إلى الودّ السابق لها.

❁ ثانياً: طاعتها لزوجها، عبادة وسعادة:

الزواج يحيل طاعة الزوجة لزوجها إلى عبادة طيلة حياتهما، ممتزجة بالسعادة.

١ ـ فطاعته في الالتزام بما يذكّرها من هدي الله، ويعصمها من النار: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾[1]، فعليه أن يحبب إليها الإسلام بالقدوة الحسنة والدعوة، ويأمرها به وتلتزم، ليكون سيرهما مع بعضهما ومع أولادهما باتجاه واحد وقلب خاشع منيب إلى الله، لتحلّ فيهم البركة.

وحين تتوجه إلى العبادة، فلها مطلق الحرية بعبادة ربها في الفرائض، أما التطوّع فلا حق لها فيه إلا بإذن زوجها، إشفاقاً عليها وعلى ضعفها، وعلى بيتها أن تقصر في حقه: **«لا يحل للمرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه، ولا تأذنَ في بيته إلا بإذنه»**[2]، أي: لا تأذن لأحد بالدخول إليه إلا بإذن الزوج. ولقد جمع حديث رسول الله حقوق الزوج على زوجته في الطاعة والأمانة والعفة إن عملت بها فهي مرضية عند الله وعند زوجها، وإن لم تعمل بها

---

(١) التحريم: ٦.

(٢) أخرجه البخاري، وأخرجه مسلم بلفظ «بعلها» بدل «زوجها».

لعنها الله وملائكته حتى ترجع: (**حق الزوج على زوجته: أن لا تمنعَه نفسها، وإن كانت على ظهر قتب، وأن لا تصوم يوماً واحداً إلا بإذنه إلا الفريضة، فإن فعلت فقد أثمت، ولم يتقبّل منها، وأن لا تعطي من بيته شيئاً إلا بإذنه فإن فعلت كان لها الأجر، وإلاّ كان عليها الوِزر، وأن لا تخرج من بيته إلا بإذنه، فإن فعلت لعنها الله وملائكة الغضب حتى تتوب أو ترجع، وإن كان ظالماً**)[1]. ومن أفضل مراتب تعامل الزوجة مع زوجها احترامه.

قالت ابنة سعيد بن المسيب: (ما كنا نكلّم أزواجنا إلا كما تكلمون أمراءكم)[2]، ولقد سمعنا أن تعامل الزوجات اليابانيات مع أزواجهن بهذا المستوى الكريم، ألا يجدر بنا نحن المسلمين أن نكون أميز، وإسلامنا يوصينا بهذه المعاني! بل إنه ﷺ ليعلنها قاعدة تسري في أغوار الزمن: «**لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها**»[3].

ولما كانت عفة المرأة وطهرها من أقوى دعائم استمرار الحياة الزوجية، احتاط الإسلام في المحارم عليها، وحذّر حتى من (الحمو) وهو قريب الزوج، لذلك قال ﷺ: «**إياكم والدخول على النساء**». قال أحدهم: أفرأيت الحمو؟ قال ﷺ: «**الحمو الموت**»[4].

٢ ـ طاعته في الفراش، وهو الذي يحصن الزوج، وإن أعماها الشيطان، فإن الحياة الزوجية تتعرض للتصدّع، من اللحظة

---

(١) أخرجه الطيالسي عن ابن عمر.
(٢) تحفة العروس /٢٠٣ ـ الهامش.
(٣) أخرجه ابن ماجه والحاكم والطبراني في المعجم الكبير.
(٤) متفق عليه.

التي يبحث فيها الرجل عن متنفّس لغريزته في الحرام، وتتصدع معها العبادة والسعادة كذلك، لذا يؤكد النبي المربي الحكيم على هذا الأمر غاية التأكيد، بل ألزم النبي ﷺ الزوجة أن تكون في فراش الزوج أبداً، ما داما أحياءً، وفي هذا سعادة للزوجين وأنس وسكن واطمئنان وتبادل حب دائم، يقول المصطفى ﷺ: «حق **الزوج على المرأة ألاّ تهجر فراشه، وأن تبرّ قَسمه، وأن تطيع أمره، وأن لا تخرج إلا بإذنه، وأن لا تدخل إليه من يكره**»[1].

٣ ـ طاعته في أمره وتجاوبها مع رأيه لون من ألوان العبادة، إذ بيده القوامة والزمام كما علمنا، وهذا لا يمنع من المشاورة، ولا بدّ من هذه الطاعة التي تجعل البيت سلس القيادة ولا تتنازع السلطات فيه، ولا جدال ولا مراء ولا خلاف، والانسجام أولى من الاختلاف وأدعى إلى السرور وتسهيل الأمور، كذلك أدعى إلى صفاء القلوب وانشراحها دائماً بالتوجه إلى الله، فإن أقبلت النفس فستقبل إلى الله بسهولة، وإن نفرت، نفرت حتى من ذكر الله، يقول رسول الله ﷺ: «**إنّ للنفوس إقبالاً وإدباراً، فأتوها من حيث إقبالها**»[2]، ولهذا فإن من دعاء القرآن

---

(١) أخرجه الطبراني عن تميم الداري، وأخرجه الروياني في مسنده.

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد من قول ابن مسعود بلفظ: «**إن لهذه القلوب شهوة وإقبالاً، وإن لها فترة وإدباراً، فخذوها من شهوتها وإقبالها، وذروها عن مقاومتها وإدبارها**»، وأخرجه من قول ابن مسعود بلفظ: «**إن لكل نفس نشاطاً وإقبالاً، ألا وإن لها سامة وإدباراً**»، الطبراني، وقال عن إسناده الحافظ الهيثمي في الزوائد: إنه منقطع، ورجال إسناده **ثقات**، وأخرجه معمر بن راشد، وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه من قول ابن مسعود، إنها بلفظ: «**إن للقلوب نشاطاً وإقبالاً، وإن لها لتولية وإدباراً، فحدثوا الناس ما أقبلوا عليكم**».

الكريم: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ۝٢٦ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝٢٧ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ۝٢٨﴾[1]، إذ ربط الله ﷻ تيسير الأمر بانشراح الصدر.

٤ ـ يقول ﷺ: **«إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها دخلت الجنة»**[2]، وإن هذه الطاعة فطرية مغروسة في ذرات كل امرأة وهي تكره أن تقود الرجل المخنّث، وتفرح هي حين يقودها زوجها الحازم، والمثل يقول: (الفرس بخيّالها).

❁ ثالثاً: عفتها وطهرها عبادة وسعادة:

الزوجة في الإسلام ملك لزوجها، وهو كذلك، وهذا هو الذي يديم الحياة الزوجية بالثقة المطلقة بينهما، وبطهرها وعفتها، وما دامت حياتهما عبادة موصولة، فلا تنظر إلى غير زوجها، نظر شهوة، ولا تتطلع في أحلامها إلا إليه، وبيتها حصن لهذه العفة، فلا يدخله غريب إلا بإذن زوجها تنفيذاً لأمر الرسول الحكيم في تشريعه: **«ألا إن لكم على نسائكم حقاً، ولنسائكم عليكم حقاً، فحقكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذَنَّ في بيتكم لمن تكرهون، ألا وحقهنّ عليكم، أن تحسنوا إليهنّ في كسوتهن وطعامهن»**[3].

وما أجمل نُصح للمرأة المسلمة قول الشاعر في عفتها وحجابها:

---

(١) طه: ٢٥ ـ ٢٨.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه الترمذي.

شذّي وثاق الطهر في ذوق الرقي ... لا تُخدعي بحديث كلّ مخرّب
لك في رحاب المجد أخصب بقعةٍ ... ولغيرك الأرض التي لم تُخصِب
لك في عيون الحق أصفى مشرب ... ولعاشقات الوهم أسوأ مشرب
هُزّي إليك بجذع نخلتنا التي ... تعطي عطاء الخير دون تهيب
وقفي على نهر المروءة إنه ... يروي العطاش بمائه المستعذب
وإذا رأيت الهابطات فحولقي ... وقفي على قمم الهُدى وتحجبي
إن الحجاب هو التحرر من هوى ... والردّ لذات الهوى المتذبذب[1]

ومن الطهر والعفة ألاّ تكلّم نساؤنا أحداً من الرجال إلا بإذن الأزواج: (نهى ﷺ أن تُكَلَّم النساء إلا بإذن أزواجهن)[2]، والمقصود بهذا الكلام في الحديث النبوي مجرد اللغو والمتعة البريئة، فهذا لا يجوز، إلا بإذن الأزواج وحضورهن، أما مجرّد الحديث المفيد فليس بممنوع شرعاً، ما لم يكن فيه اللين والميوعة، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ۝٣٢﴾[3].

ورحم الله الشاعر الوفي في قوله:

ريحانة القلب اقرئي ما سطّرته ... أقلام أحزاني على أحداقي
وارعَيْ مواثيق العفاف فإنما ... طبع الوفيّ رعاية الميثاق

---

(١) موسوعة رياض الشعر الإسلامي القيمي ـ المؤلف.

(٢) عزاه المناوي في فيض القدير إلى الطبراني، ولم أجده في معاجمه، ولكن وجدته في كتاب العلل للدارقطني.

(٣) الأحزاب: ٣٢.

لذا كانت أم المؤمنين عائشة ﵂ تسأل وتجيب، وتفتي، إذ أن صوت المرأة ليس بعورة، ومن كبّار العلماء والمحدثين والفقهاء في عمر التاريخ الإسلامي نساء، ولم يعترض على كلامهنّ أحد! وفي حديثهنّ الإسلامي، ودعوتهنّ للرجال وللنساء عبادة، يقول عزّ وجلّ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾[(١)].

❁ رابعاً: صلاحها عبادة وسعادة:

ذكرنا أن زوجها يذكّرها بتقوى الله، ليقيها من النار، وكانت الزوجة من السلف الصالح تقول لزوجها إذا خرج إلى عمله في البكور: (اتق الله وإياك والكسب الحرام، فلنصبر على الجوع والضرّ، ولا نصبر على النار)[(٢)].

هكذا يثمر صلاح الزوجة عبادة لله، والصبر على إنفاقه عليها، ولا الغنى بالحرام ثم اقتحام النار!

لذلك فإن سعادة الزوج في الدنيا أربع ـ أولها الزوجة الصالحة: (أربع من سعادة المرء: أن تكون زوجته صالحة، وأولاده أبراراً، وخلطاؤه صالحين، وأن يكون رزقه في بلده)[(٣)].

---

(١) التوبة: ٧١.

(٢) نظم الحياة في الإسلام /٢١٤ ـ المؤلف.

(٣) أخرجه الديلمي وابن عساكر وابن أبي الدنيا في كتاب الإخوان، وذكر ابن أبي حاتم في علله أن أبا زرعة قال عنه: «إنه حديث منكر».

ومن مكافأة الله ﷻ لصلاح المرأة أن ضاعف لها الأجر على الرجل، حين قال ﷺ لأسماء بنت عميس المهاجرة إلى اليمن: «**لكم أنتم أهل السفينة هجرتان، ولعمر ﷺ ومن معه من المهاجرين إلى المدينة هجرة واحدة**»! أيّ: تكريم من رسول الله ﷺ للمرأة المهاجرة في سبيل الله؟!

يروي البخاري ﷺ الحديث المطول: (هاجرت أسماء بنت عُمَيس من اليمنَ في سفينة، هي ومعها نيّف وخمسون رجلاً من قومها، فألقتهم في السفينة إلى النجاشي بالحبشة، فوافقوا جعفر بن أبي طالب، ثم قدموا النبي ﷺ، حين افتتاح خيبر، ولقيها عمر ﷺ في دار حفصة، فسأل عنها: الحبشية هذه البحرية؟ قالت أسماء: نعم. قال عمر: سبقناكم بالهجرة، **فنحن** أحق برسول الله منكم، فغضبت وقالت: كلاّ والله! كنتم مع رسول الله ﷺ **يطعم جائعكم ويعظ جاهِلكم**، وكنا في دار البُعَداء البغضاء بالحبشة، وذلك في الله وفي رسوله ﷺ، وأيمُ الله لا أطعَمُ طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلتَ لرسول الله ﷺ، ونحن كنا نؤذي ونخاف،.. والله لا أكذب ولا أزيغ، ولا أزيد عليه. فلما جاء النبي ﷺ قالت: يا نبيّ الله، إن عمر قال: كذا وكذا، قال: «**فما قلت له؟**» قالت: قلتُ له كذا وكذا، قال: «**ليسَ بأحقَّ بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان**...»[1]!.

هكذا أجر المرأة الصالحة المهاجرة ضعف أجر الرجل المهاجر!

(١) متفق عليه، اللؤلؤ والمرجان ج٣/١٧٢.

❁ خامساً: وفاؤها عبادة وسعادة:

لكلا الزوجين فضل على الآخر، لذا فإن الله ﷻ يذكّرهما بـذلـك: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1]، وفي إحسانها إليه مأجورة، فهي في عبادة، وكذا هو في إحسانه إليها في عبادة.

أما **وفاؤها لزوجها** فأهم صفة لها، لأنه بيان لجوهر المرأة وتثمينها لجهود زوجها، الذي أكرمها بالمهر، والذي أنشأ لها البيت وما فيه من أثاث وطعام وحاجات،... وأكرمها بالحليّ والزينة، ولبّى مطالبها، ويبذل جهده أبداً ويشقى ويكدح في طلب الرزق لها ولبيته سحابة نهاره، وهو سبب إنجابها الأولاد، ولولاه لما كانت لها ذرية، يشترك معها في تربيتهم، وهو سبب سعادتها في بيتها الجديد معه، سيّده له.

لذا فإن فضل الزوج عليها عظيم، أعظم من أي فضل لأي إنسان في الوجود. (سألت عائشة رسول الله ﷺ: أيّ الناس أعظم حقاً على المرأة؟ قال ﷺ: «**زوجها**»، ثم سألت: أي الناس أعظم حقاً على الرجل؟ قال: «**أمه**»[2]، وإن دخول الزوجة الجنة رهن وفائها ورضاه عنها: «**أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة**»)[3].

حتى إن عبادة المرأة ربّها لا تقبل في حالة معصيتها

---

(١) البقرة: ٢٣٧.

(٢) أخرجه الحاكم وصححه، والنسائي في السنن الكبرى.

(٣) أخرجه الترمذي وابن ماجه وعبد بن حميد والبزار وابن أبي شيبة، والطبراني والبيهقي.

زوجها، وتمرّدها عليه، يقول النبي الحكيم ﷺ: **«ثلاثة لا تُرفع صلاتهم فوق رؤوسهم شبراً: رجل أمّ قوماً وهم له كارهون، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط، وأخوان متصارمان** - أي متنازعان**»**[١].

ألا فلتحذر الزوجة نسيان الوفاء، إنه الغدر بالزوج والجحود للفضل والإساءة له، يقول النبي الحكيم والزوج الوفي ﷺ: **«رأيت النار، فلم أرَ منظراً كاليوم قط، رأيت أكثر أهلها من النساء»**، قالوا: بِمَ يا رسول الله؟ قال ﷺ: **«يكفرن»**، قيل: يكفرن بالله؟ قال ﷺ: **«يكفرن العشير، ويكفرن بالإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله، ثم رأت شيئاً، قالت: ما رأيت منك خيراً قط»**[٢].

فالوفاء عبادة جزاؤه الجنة، والجحود وزر جزاؤه النار!.

وما أجمل ما يتغنى به الزوج الولهان بزوجه، برقة ووفاء، فيقول:

ريحانة القلب، اقرئي ما سطّرت ... لأقلام أحزاني على أحداق
وارعي مواثيق العفاف، فإنما ... طَبعُ الوفيّ رعاية الميثاق

❀ النهيُ عن غياب الزوج عن زوجته طويلاً:

بينما عمر بن الخطاب ﷺ يجوب المدينة، مرَّ بامرأة في بيتها وهي تُنشد:

---

(١) أخرجه ابن حبان وابن ماجه والطبراني.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم، اللؤلؤ والمرجان ج١/١٨٠.

تطاولَ هـذا اللـيلُ وازورَّ جانبُهُ		وأرَّقـنـي أن لا ضـجـيـع أُلاعـبُـه
ألاعــبــه طــوراً وطــوراً كــأنــمــا		بدا قمراً في ظُلمة الليل حاجبُه
يُسَـرُّ بـه مـن كـان يـلـهـو بـقُـربـهِ		لَطيف الحشـا لا يحتويه أقاربُه
فـوالله لــولا الله لا شــيء غــيـره		لحُرِّكَ من هـذا السـرير جوانبُه
ولـكـنـنـي أخـشـى رقـيـبـاً مُـوكَّـلاً		بأنـفـسـنـا لا يـفـتـرُ الـدهـرَ كـاتـبُـه
مـخـافـةُ ربـي والـحـيـاءُ يـصُـدُّنـي		وإكـرامُ بـعـلـي أن تُـنـال مـراتُـبـه!

فسأل عنها عمر ﷺ، فقيل له: هذه فلانة زوجها غائب في سبيل الله، فأرسل إليها تكون معه، وبعث إلى زوجها، فأرجعه، ثم دخل على حفصة، فقال: يا بنية.. كم تصبر المرأة على زوجها؟ فقالت: سبحان الله! مثلُك يسأل مثلي عن هذا؟! فقال: لولا أني أريد النظر للمسلمين ما سألتُك. قالت: خمسة أشهر.. ستة أشهر.. فوقّتَ للناس في مغازيهم ستة أشهر.. يسيرون شهراً، ويقيمون أربعة أشهر، ويسيرون راجعين شهراً!. هكذا عفة الجيش الإسلامي المجاهد المنتصر[1]!

❁ ومن نماذج وفاء الزوجة ما يأتي:

قال الأصمعي: دخلت بعض مقابر الأعراب، ومعي صاحب لي، فإذا جارية على قبر كأنها لؤلؤة، وعليها من الحلي والحلل ما لم أر مثله، وهي تبكي بعين غزيرة، وصوت شجي، فالتفتُ إلى صاحبي فقلتُ: هل رأيتَ أعجب من هذه؟!

---

(١) روى هذه القصة الإمام مالك بن أنس في الموطأ عن عبدالله بن دينار، تربية الأولاد في الإسلام/ ٥٨٣.

قال: لا والله ولا أحسبني أراه.

ثم قلتُ لها: يا هذه إني أراكِ حزينة، وما عليك زي الحزن؟!.

فأنشأت تقول:

فإن تسألاني فيم حُزني فإنني ... رهينةُ هذا القبر يا فتيان
وإني لأستحييه والتُّرب بيننا ... كما كنتُ أستحييه حين يراني
أهابُكَ إجلالاً وإن كنت في الثرى ... مخافة يوم أن يسُؤك لساني

ثم اندفعت في البكاء وجعلت تقول:

يا صاحب القبر يا من كان ينعمُ بي ... بالاً ويُكثر في الدنيا مواساتي
قد زرتُ قبركَ في حُلي وفي حُللٍ ... كأنني لست من أهل المُصيبات
أردتُ آتيك فيما كنتُ أعرفه ... أن قد تُسرُّ به من بعض هيئاتي
فمَن رآني رأي عَبري مولهة ... عجيبةَ الزي تبكي بين أموات[1]!

وقد رأى ابن عبد ربه بصحراء جاريةً قد ألصقت خدَّها بقبرٍ، وهي تبكي وتقول:

خَديَّ تقيك خشونة اللَّحد ... وقليلةٌ لك سيدي خدِّي
يا ساكن القبر الذي بوفاته ... عميَتْ عليَّ مسالكُ الرُّشد
اسمع أبُثُّك عِلّتي فلعلَّني ... أُطفي بذلك حُرقة الوجدِ[2]

(١) رياض الشعر الإسلامي/ القيمي ـ المؤلف.

(٢) رياض الشعر الإسلامي/ القيمي ـ المؤلف.

كانت خطيبة محمد بن هارون الرشيد ـ لبانة ـ من أجمل النساء، فقُتِل محمد عنها، ولم يبْنِ بها، فرثته[1]:

أبـكـيـك لا لـلـنـعـيـم والأُنـسِ | بـل لـلـمـعـالي والـرمـح والـقـوس
يـا فـارسـاً بـالـعـراء مـطـرحـاً | خـانـتـه قـوّادُه مـع الـحـرس
أبـكـي عـلـى سيِّـد فُـجـعـتُ بـه | أرمـلـنـي قـبـل لـيـلـة الـعُـرس

وقالت أعرابية ترثي زوجها[2]:

كفاك غصنين في جرثومة بسقا | حبّاً على خير ما تنمي به الشجر
حتى إذا قيل قد طالت فروعهما | وطاب قنواهما واستمطر الثّمر
أخنى على واحد رَيب الزمان وما | يبقي الزمان على سنّي، ولا يذُر
كنا كأنجم ليلٍ بينهما قمر | يجلو الرقي فهوى من بينها قَمَرُ

شوق المرأة لزوجها الغائب عنها وعن أولادها، تدعوه إلى المسارعة في العودة، وعلى لسان إحدى الشاعرات:

زمانك بستان، وعهدُك أخضرُ | وذكرك عصفور من القلب يَنقُرُ
وكنتَ، فكانت في الحقول سنابل | وكانت عصافير، وكان صنوبر
لمستَ أمانينا، فصارت جداولاً | وأمطرتنا حبّاً، ولا زلت تُمطِر
تعاودني ذكراكَ كلّ عشية | ويورق فكري، حين فيك أُفكّر
وتأبى جراحي أن تضمّ شفاهها | كأن جراح الحُبِّ، لا تتخثر
أحبُّك! لا تفسير عندي لصبوتي | أفسّر ماذا؟ والهوى لا يُفسّرُ!

---

(١) تحفة العروس/ محمود مهدي الإستنبولي /٢٠٩.
(٢) المصدر السابق.

تأخرتَ، يا أعلى الرجال، فليلنا طويل، وأضواء القناديل تسهرُ
تأخرتَ.. فالساعات تأكل نفسها وأيامنا في بعضها تتعثر[1]!

(١) تحفة العروس ٢٥١/، لم يذكر اسم قائلها.

تم الكتاب الأول بتوفيق الله عز وجل
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥
أهمية الزواج شعار الزوجين في الزواج	٩
مقام الأزواج مقام الزوج في قلب زوجته	١٠
المرأة الصالحة	١١
المقدمة	١٣
سعادة الأسرة المسلمة في جنة الدنيا بالحياة المطمئنة الكريمة	٢٣
تمهيد	٢٥
● الفصل الأول: الإسلام يلبي نداء الفطرة في بناء الأسرة	٢٧
● الفصل الثاني: مقام الأنثى ـ طفلة وامرأة ـ في الإسلام	٤١
المبحث الأول: عنايته بالأنثى ـ طفلة، تعبداً وإسعاداً لها	٤٥
المبحث الثاني: عناية الإسلام بالأنثى ـ امرأة ـ تعبداً، وإسعاداً لها	٥٢
المبحث الثالث: استثناء المرأة من بعض مسؤوليات الرجال، رحمة بها وتكريماً وإسعاداً	٦٥
المبحث الرابع: جهاد المرأة المسلمة	٧٢

هذا الكتاب

(السبعين) من كتبي بأجزائه الأربعة بين يديك، وهو قلادتها. استعنت فيه بمئات المصادر، وألف نص قرآني ونبوي، ومئات من النصوص الشعرية المنتقاة وعشرات القصص، بأسلوب سلس وتنسيق ممتع يغري القارئ به من أول نظرة.

تناولت فيه الأسرة المسلمة وآداب تربيتها الربانية، بما يضمن سعادتها، ابتداء من نية الزواج وتدرجاً في استقصاء منهاج حياتها فيما بينها، وبينها وبين من يعيش معها من أيتام وخدم، وما تتعامل معهم من اقرباء وجيران وأصدقاء وأعداء، وتعامل إنساني، بما يحقق كرامة الإنسان.

هذا في الكتب الثلاثة الأولى، أما الرابع فعني بوصف الأسرة المسلمة في نعيم جنة الخلد، مقارنة بأهل النار، الذين تنكبوا الهدي الإلهي في تربيتها.

أ. د. عابد توفيق الهاشمي

- من مواليد الموصل ـ أم الربيعين ـ العراق.
- حصل على شهادة الليسانس في اللغة العربية وآدابها، وباشر التدريس الثانوي في معاهد المعلمين عشر سنين.
- حصل على شهادة الماجستير من (U.S.C) كاليفورنيا في المناهج وطرائق التدريس.
- حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة القرآن الكريم ـ السودان في العقيدة والأديان بامتياز.
- عمل في التعليم الجامعي في العراق والسعودية واليمن والإمارات، أكثر من ٤٠ عاماً.
- حصل على درجة الأستاذية عام ١٩٩٢.
- كان عميداً لكلية الدراسات الإسلامية في بغداد قبل أكثر من ثلث قرن.
- بلغ إنتاجه العلمي أكثر من (٨٠) كتاباً ـ منها (٢٠) كتاباً منهجياً، وله (٧٠) بحثاً.
- أشرف على أعداد كثيرة من طلبة الدراسات العليا، وحضر عشرات المؤتمرات العربية والدولية.

ISBN 9953-81-366-3

9789953813660

Happy Family Centre

مركز الأسرة السعيدة

هاتف: 25 55

فاكس: 66 68

ص.ب:

دبي ـ الإمارات العربية المتحدة

Dubai, United Arab Emirates

E-mail: hfc@emirates.net.ae

www.happyfamilycentre.com

S.R. 10

مكتبة جرير

JARIR BOOKSTORE

ريال